

كلية الآداب

جامعة بنغازي



الدراسات العليا

)

شعبة الأدبيات

قسم اللغة العربية وآدابها

السَّخْرِيَّةُ عِنْدَ شِعْرَاءِ الْقَرْنَيْنِ الثَّانِي وَالثَّلَاثِ الْهَجْرِيَيْنِ ((دراسة فنية موازنة))

قُدِّمَتْ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ اسْتِكْمَالًا لِمَتَطَلِبَاتِ دَرَجَةِ الْإِجَازَةِ الْعَالِيَةِ (الماجستير)

بِكَلِيَّةِ الْآدَابِ - قِسْمِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَآدَابِهَا - بِنَارِيخِ 15 / 11 / 2011م

إعداد الطالب :

عثمان سعد علي عمر

إشراف الدكتور:

طاهر عمران الطير
أستاذ الأدب العربي المساعد
كلية الآداب - جامعة بنغازي

تاريخ المناقشة :

2011/11/15م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾

سورة الإسراء.

الآية (85)

إهداء

إلى مَنْ لهم المكانة الأولى
في قلبي ..
أبي وأمي الغاليين
وزوجتي وابني العزيزين
أهدي هذا العمل ..

فهرس الموضوعات

1	• مقّمة
9	• الفصل الأول : الدراسة التمهيديّة
10	• المبحث الأول : مفهوم السخرية
20	• المبحث الثاني : العلاقة بين السخرية والهجاء
29	• المبحث الثالث : السخرية قبل العصر العباسي
42	• الفصل الثاني : شعراء السخرية العباسيون
44	• المبحث الأول : شعراء مشهورون
72	• المبحث الثاني : شعراء مغمورون
114	• الفصل الثالث : شعر السخرية أثره وقيّمته
116	• المبحث الأول : أثر البيئة في شعر السخرية
126	• المبحث الثاني : أثر شعر السخرية في الشعر العربي
143	• المبحث الثالث : القيمة الفنيّة والأدبية لشعر السخرية
159	• الفصل الرابع : الدراسة الفنيّة
	• المبحث الأول :
161	▪ بناء قصيدة السخرية
165	▪ الوزن والقافية
175	▪ المعجم الشعري
	• المبحث الثاني :
201	▪ الصورة الشعريّة
209	▪ التقليد والتجديد
213	▪ الطبع والصنعة
218	• الخاتمة
	• ثبت المصادر والمراجع

المقدمة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا الأمين ، وعلى آله وصحبه
ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ..

وبعد ..

لقد تناولت العديد من الدراسات السخرية في الأدب العربي — شعراً ونثراً — إلا
أن الملاحظ على أغلبها عدم عنايتها الكافية بدراسة مصطلح السخرية والتمييز بينه
وبين عدد من المصطلحات القريبة منه ، كالفكاهة والهجاء — على سبيل المثال — حيث
دأبت هذه الدراسات على الخلط بينهما وبين السخرية بوصفها مصطلحات فنية وأدبية
تشارك في الخطاب النقدي الموجه نحو الفرد أو الجماعة أو العادات والتقاليد أو
السلوكيات الخاطئة التي تتصف بها بعض المجتمعات الإنسانية .

إضافةً إلى ذلك ، نجد بعض هذه الدراسات حينما تعرضت لدراسة السخرية في
الشعر العربي ، فإنها ربطتها بالعصر العباسي دون غيره من العصور ؛ إلا أن المتتبع لهذه
القضية في الأدب العربي يجد لها جذوراً راسخة في مقطوعات وأبيات متفرقة عند شاعرين
مخضرمين هما : حسان بن ثابت والحطيئة ، كما نجد لها مبعثاً في فن النقائض لاسيما عند
جرير والفرزدق ، اللذين أبدعا في هذا الفن أيما إبداع .

كما أن ربط السخرية بمشاهير العصر العباسي كأبي دلالة (ت.161هـ) وبشار
ابن برد (ت:165هـ) ، وأبي نواس (ت.199هـ) ، وابن الرومي (ت.284هـ) .
دون ذكر — ولو استطراداً — لشعراء آخرين برعوا في الفن الساخر مثلهم ، وربما فاقوا
بعضهم في تناوله ، فيه مجافاة للحقيقة . وهؤلاء الشعراء الذين نقصدهم هم : علي بن
الخليل من مخضرمي الدولتين ، وإسماعيل بن عمار (ت.175هـ) ، وأبان اللاحقي (ت.200هـ) ،
ومحمد بن يسير الرياشي (ت.230هـ) ، ومُخلد بن بَكَّار (تُوفِّي في
النصف الأول من القرن الثالث الهجري) ، والحمدوني الذي أدرك بداية القرن الرابع
الهجري ، وعلي بن بسّام (ت.302هـ) ، الذين سبق لإبراهيم النجار أن ذكرهم في

كتابه (شعراء عباسيون منسيون) وقد صنّفهم ضمن (مسلك التهزل)⁽¹⁾، وأثبت لهم مجموعة من النصوص الشعرية السافرة المتنوعة من دون أن يتعرض لدراستها دراسة فنية تستنطقها ، وتبين قيمتها الفنية والأدبية .

ومن هنا ، عزّم الباحثُ على استجلاء هذه الأمور وغيرها ضمن دراسة فنية موازنة بعنوان (السخرية عند شعراء القرنين الثاني والثالث الهجريين) ، وذلك انطلاقاً من أن هؤلاء الشعراء المشاهير والمغمورين محصورون في هذين القرنين من جانب ، وكون هذين القرنين شهدا تضخماً واتساعاً في عدد الشعراء الذين سلكوا مسالك مختلفة عن الأغراض التقليدية التي عُرفت قبل العصر العباسي من جانب آخر ، وقد اتسمت هذه المسالك بالطابع الساخر وإن اختلفت مواضيعها ودوافعها النفسية ، ومنها على سبيل المثال مسالك الكدية ، والتثاقل ، والتطفيل ، والرقاعة ، والسخف ، والسماجة والتحامق التي مازالت لم تنل حقها من الدراسة الفنية الجادة .

وتكمن أهمية هذه الدراسة في كونها تتناول هذا الموضوع المهم — السخرية — الذي قصرت في تناوله كثير من الدراسات ، فاكتفى بعضها بدراستها على عجل عند مشاهير الشعراء وحدها بالعصر العباسي ، بينما استنكف بعضها الآخر عن دراسة الشعر الساخر — بناءً ولغةً ووزناً وصورةً شعريةً — ظناً من أصحابها أنه أقل قيمة أدبية من فنون الشعر الأخرى .

وقد تتبع الباحث الدراسات السابقة التي تناولت السخرية في الأدب العربي وفي العصر العباسي تحديداً ، فعثر على عدد من هذه الدراسات التي اتجه بعضها اتجاهها زمنياً في تناول السخرية ، فيما فضّل بعضها الآخر دراستها عند شخصيات بعينها .

ومن هذه الدراسات دراسة (د. نعمان طه) "السخرية في الأدب العربي حتى القرن الرابع الهجري" ، حيث تعرض الباحث في بداية دراسته لمعنى الضحك ، ثم أردفه بالحديث عن مصطلح السخرية في اللغة والقرآن الكريم والبلاغة العربية ، بعدّها تحدّث

(I) — ينظر : شعراء عباسيون منسيون ، 103/3 — 298.

عن السخرية عند عدد من الشعراء والكتّاب خلال زمن الدراسة ، وهم : حسان بن ثابت ، والحطيئة ، وجرير ، والجاحظ ، وأبو العيّن ، وأبو العلاء المعرّي ، ثم ذبّل دراسته بذكر نماذج من مقطوعات الحمدوي من دون أن يتعرض لدراستها ، ومن هنا فقد اقتصر على ذكر هذا العدد القليل من أعلام الشعراء والكتّاب المشهورين من دون أن يتعرض لسواهم من تغصُّ كتب التراث بنتائجهم الساخر لاسيما وأنه درس مدةً زمنيةً ليست بالقصيرة .

فيما نجد دراسة "شعر السخرية في العصر العباسي" للباحث (محمد مصطفى سلام)، الذي أعدّها لنيل درجة الماجستير في الأدب في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة عام 1974م ، وقد تعرض الباحث فيها لمعنى السخرية في (اللغتين العربية والإنجليزية) ، ثم عرض لنماذج من الشعر الساخر للعصور السابقة للعصر العباسي وذلك في تمهيد دراسته، وبعدها قسّم باقي موضوعاته على باين اثنين تناول فيهما شعر السخرية وشعراءها المشاهير في العصر العباسي ، ثم درس أثر الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية في تطور الشعر الساخر، ثم تبعها بدراسة لدوافع السخرية وظواهرها في هذا العصر، خاتماً دراسته بذكر خصائصها العامة التي ميزتها عن غيرها من الفنون ، ويلاحظ على هذه الدراسة عدم تفريقها بين مصطلحات السخرية والفكاهة والهجاء وغيرها من المصطلحات المشابهة ، كما أنها أغفلت ذكر عدد آخر من الشعراء العباسيين الذين أبدعوا في هذا الفن كالمشاهير ، وربما فاقوا بعضهم فيه .

أما دراسة الباحث (يس سعد محمد إبراهيم قميح) المسماة "سخرية المتنبي في كافورياته" ، التي قدمها لنيل درجة الماجستير في الأدب في كلية الآداب من جامعة الإسكندرية عام 1992م ، فقد فرّق الباحث في بداية دراسته بين الساخر والهاجي ، ثم انطلق في الحديث عن سخریات المتنبي من كافور وعيوبه الخُلقيّة والخُلقيّة، موضحاً خصائص شعر المتنبي الساخر وما يتعلق به من الجوانب الفنية المعتاد دراستها في شعر السخرية عن سابقه ، إلا أن المدقق في تفريقه بين (الساخر) و(الهاجي) يجده يتجاهل أن الفرق بين الاثنين في الشعر العربي ليس بكبير ؛ وذلك لوجود بعض الجوانب المشتركة بينهما التي تكمن في اشتراكهما في الخطاب النقدي ، واستخدام المبالغة ، واتخاذ الشاعر

منهما وسيلة دفاع يذود بها عن نفسه أو جماعته ، إضافةً إلى أن الشاعر الساخر هو شاعر هجاءً بطبعه.

أما دراسة الباحثة (سهام سلامّ عباس حدين) "السخرية في شعر ابن الرومي" التي أعدتها لنيل درجة الماجستير في الأدب في كلية الآداب من جامعة الإسكندرية عام 1995م ، فقد تعرّضت فيها الباحثة لمصطلح السخرية في الآداب الأوروبية نافيةً أن يكون الأدب العربي قد عرفها قبل العصر العباسي ، وهذا ما تبطله النصوص الساخرة التي وجدناها تمثل نصوص العصور (الجاهلي والإسلامي والأموي) ، كما تناولت الباحثة بشيء من التفصيل شعر السخرية في العصر العباسي مركزةً على الخصائص الفنية للتصوير الساخر عند ابن الرومي وتفوّقه في هذا الجانب ، كما أنّها عُنيت بذكر الدوافع التي جعلت الشاعر العباسي عامة يتجه نحو السخرية ، لأنه — وحسب رأيها — يشعر " بأنه منبوذ ومحاصر وأن المجتمع من حوله يخنقه ويسحقه"⁽¹⁾ ، ولذا فإنه يلجأ " إلى السخرية يشهرها سلاحاً قوياً في وجه المجتمع ليحمي نفسه ويركن إليها باحثاً من خلالها عن مخرج وحل"⁽²⁾.

إضافةً إلى ذلك ، فقد خصصت الفصل الأخير من دراستها للجانب الفني لشعر السخرية عند ابن الرومي تحدّثت فيه عن "البناء الشعري — الوزن والقافية — اللغة — الصورة الشعرية — القديم والجديد — وغيرها" .

فيما نجد دراسة أخرى هي دراسة الباحث (عمر ديب يونس) "السخرية في أدب المعري" ، التي قدمها لنيل درجة الماجستير في الأدب في كلية الآداب بجامعة قاريونس سابقاً عام 1995م . قد تناول فيها الباحث السخرية في المعاجم اللغوية وفي القرآن الكريم من دون أن يذكر المعنى الاصطلاحي لمعنى السخرية ، وعلى الرغم من أنه أكد على أن العصر الجاهلي لم يخلُ من السخرية ، إلا أنه عند ذكره لشعراء السخرية في العصر العباسي أغفل الإشارة إلى شعراء سخرية آخرين من غير المشاهير كالحمدوني وابن بسّام على سبيل المثال ، كما أنه لم يقدم لنا دراسة فنية لبناء قصيدة السخرية أو المقطوعة الساخرة ، وهذه

(1) — السخرية في شعر ابن الرومي ، ص39.

(2) — الموضوع نفسه.

المسألة فـات الكـثير من الـدراسـات السـابـقة تـناوـلها ، وذلـك علـى الرـغم من تـفـرّد قـصـيدة السـخـرية عـند كـثير من شـعراء القـرنين الثـاني والثـالث الهـجريين بوحـدة المـوضـوع والـبـناء تـمـيـز الأوزان والقوافي واللغة والصور الشعرية ، وما النصوص التي سنذكرها — لاحقاً — للشعراء المغمورين إلا دليلٌ على ذلك .

أما المنهج الذي ارتآه الباحث لهذه الدراسة فهو المنهج المتكامل الذي يتيح له الوصول إلى أفضل النتائج وأكثرها مصداقيةً وجدّة .

وقد جاء بناء الدراسة مقسّمًا على أربعة فصول وخاتمة .

الفصل الأول — الدراسة التمهيديّة : تناول فيه الباحث ثلاث قضايا فسّمت

على ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول — مفهوم السخرية : تعرّض فيه الباحث لمعنى السخرية لغةً واصطلاحاً وبلاغةً ، والفرق بينها وبين الفكاهة .
- المبحث الثاني : درس فيه الباحث العلاقة بين السخرية والهجاء .
- وفي المبحث الثالث : تحدّث فيه الباحث عن السخرية قبل العصر العباسي مورداً الأدلة على وجودها في هذه المدة الزمنية .

أما الفصل الثاني — شعراء السخرية العباسيون : فقد صنّف فيه الباحث هؤلاء

الشعراء على مجموعتين :

- المبحث الأول — شعراء مشهورون : وهم أربعة (أبو دلّامة ، وبشار بن برد ، وأبو نُؤاس ، وابن الرومي) .
- المبحث الثاني — شعراء مغمورون : وهم سبعة (علي بن الخليل ، وإسماعيل بن عمار ، وأبان اللاحقي ، ومحمد بن يسير الرياشي ، ومُخلّد بن بكار ، الحمدي ، وعلي بن بسّام) ، معرّفًا بهم ومورداً نماذج من أشعارهم الساخرة مقرونة بدراسة فنية موازنة تبرز فيما تفوق أصحاب كل مجموعة أو اتفقوا .

الفصل الثالث — شعر السخرية أثره وقيّمته : وقد جاء هذا الفصل في ثلاثة

مباحث:

- المبحث الأول — أثر البيئة في شعر السخرية : وقد تناول الباحث أثر العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في شيوع شعر السخرية في العصر العباسي بشكل لافت .
- المبحث الثاني — أثر شعر السخرية في الشعر العربي : تحدث الباحث عن هذا الأثر في بعض أغراض الشعر العربي التقليدية ثم عند عَلمين من أعلام الشعر العربي ، وهما المتنبي وأبو العلاء المعرّي بوصفهما يمثلان القرنين التاليين لزمان الدراسة ، وهما القرنان الرابع والخامس الهجريان .
- أما المبحث الثالث — القيمة الفنية والأدبية لشعر السخرية : وتبينت لنا قيمته الفنية من خلال اعتماده تقنيات فنية كالتصوير الساخر ، والمفارقة والحوار وما شابه . أما قيمته الأدبية ، فتكمن في تمثيل النصوص الساخرة لعصرها وبيئتها وانغراس شعرائها في واقعهم وتأثرهم به ومحاولتهم إصلاح ما يمكن إصلاحه مما لحقه من تشوهات وسلوكيات غير أخلاقية .

الفصل الرابع خُصِّصَ للدراسة الفنية ، وشمل مبحثين :

- المبحث الأول — تعرّض فيه الباحث لبناء قصيدة السخرية ، والوزن والقافية ، والمعجم الشعري .
 - المبحث الثاني — وتناول فيه الباحث القضايا التالية : الصورة الشعرية ، التقليد والتجديد ، الطبع والصنعة .
- وقد ختم الباحث دراسته بملخص لأهم النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة .

أما أهم الصعوبات التي واجهت الباحث فتكمن في شحّ الدراسات الفنية والتحليلية التي تباشر النص الشعري الساخر بعيداً عن التنظير والعموميات ، مما ألجأه في بعض الأحيان للاعتماد على عدد من المقالات الإلكترونية التي في أغلبها تدرس السخرية في النشر لا الشعر .

ومن الصعوبات كذلك عدم حصول الباحث على بعض المصادر المهمة ، مما اضطره للنقل عن مراجع أخرى ، الأمر نفسه واجهه الباحث في المراجع مما جعله يستبعد بعضها من الدراسة مثال ذلك كتاب (الفكاهة في مصر) لشوقي ضيف وكتاب (شعراء هازلون) لأمل مسكوني ، أو للنقل عن مراجع أخرى ، ماعدا ذلك واجه الباحث ما يواجهه نظراؤه البُحّاث من مشاق السفر داخل أرض الوطن وخارجه لجمع مادته العلمية.

ولا يسعني إلا أن أتوجّه بالشكر والامتنان لأستاذي الفاضل الدكتور : (طاهر عمران الطير) على ما بذله من جهد مضمّن ومتواصل في سبيل الوصول بعملّي هذا إلى أفضل صورة ، داعياً الله أن يجزيه عني الأجر والثواب .

كما أثني بالشكر والعرفان بالجميل لأساتذتي بقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة بنغازي ، وهم : الدكتور محمد دُغيم ، والدكتور عمر خليفة ، والدكتور فيصل الحداد، والدكتور عبدالمطلوب الطبولي ، والدكتور أحمد عمران ، والدكتور عوض الصالح، والدكتور شعبان عوض العبيدي ، والدكتور محمد لياس ، والأستاذ امراجع الطلحي، ولا يفوتني أن أشكر الدكتورة هنية الكاديكي على ما قدّمته لي من عون ومساعدة.

كما أخصُّ بشكري وتقديري الأستاذين العزيزين الدكتور إبراهيم حتيّرة، والدكتور هلال الجهاد ، عضوي هيئة التدريس بكلية الآداب والعلوم بالمرج ، شاكرًا في الوقت نفسه الطّبّاع المخلص والتميّز الأستاذ عبدالباسط الشحومي ، والعاملين بمكتبة كلية الآداب والعلوم بالمرج على ما قدموه لي من العون في وصولي لبعض المصادر والمراجع التي اعتمدتُ عليها في دراستي هذه ، داعياً الله أن يوفّقني لما يحبه ويرضاه ويجزي كلّ من مدّ لي يد العون عني خيراً الجزاء .

الفصل الأول

الدراسة التمهيديّة

المبحث الأول : مفهوم السخرية.

المبحث الثاني : العلاقة بين السخرية والهجاء.

المبحث الثالث : السخرية قبل العصر العباسي.

المبحث الأول

مفهوم السخرية

معنى السخرية اللغوي :

وردت السخرية في معاجم اللغة بمعانٍ متنوعة وبدلالات شتى ، غير أن أقربها للذهن هو الضحك والإضحاك ، فقد ذكر صاحب أساس البلاغة⁽¹⁾ "سخر فلان سخرَةً يضحك منه الناس ويضحك منهم". وفي اللسان⁽²⁾ ورد "سخرتُ منه وسخرتُ به ضحكتُ منه وضحكتُ به"، وأضاف "وهزئتُ منه وهزئتُ به والسخرة الضحكة"⁽³⁾.

فالسخرية هنا مرادفة للضحك والإضحاك في المرتبة الأولى ، ثم نرى صاحب اللسان يضيف معنى آخر وهو "الهزاء" ، وقد كثر في القرآن الكريم^(*) استخدام هذا المعنى مرادفاً للسخرية ، ومنها قوله تعالى في شأن الكفار : ﴿ قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ﴾⁽⁴⁾. وقد ذكر الهزاء والسخرية معاً وبالمعنى نفسه فقال سبحانه : ﴿ ولقد استهزئ برسول من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾⁽⁵⁾.

كما أضافت المعاجم اللغوية معنىً ثالثاً للسخرية هو (التذليل) أو (القهر) ، فجاء في الأساس⁽⁶⁾ "سخر الله لك وهؤلاء سخرية للسلطان يتسخرهم ويستعملهم بغير أجر". وفي لسان العرب جاء "السخرة الضحكة ، والسخرة كذلك ما تسخرت من دابة أو خادم بلا أجر أو ثمن ، يقال : سخرته ، بمعنى سخرته أي قهرته وذلكته"⁽⁷⁾. فالسخرية هنا

(1) — الزمخشري ، مادة (سخر) .

(2) — ابن منظور ، مادة (سخر) .

(3) — المصدر نفسه .

(*) — لقد ذكر القرآن الكريم لفظ السخرية بأغلب استخداماتها ومرادفاتهما : كالضحك والهزاء والتذليل والاستعمال وغيرها . ينظر : طالب محمد الزوبعي : ظاهرة الترادف في ضوء التفسير البياني للقرآن الكريم ،

ص107 — 113 .

(4) — سورة التوبة ، الآية (65).

(5) — سورة الأنعام ، الآية (11).

(6) — الزمخشري ، مادة (سخر) .

(7) — ابن منظور ، مادة (سخر) .

هي التسخير بمعنى جعل الشيء مطاوعاً لك ولخدمتك ، وبهذا المعنى وردت آيات قرآنية كثيرة تُظهر كيف أن الله سبحانه سخر مظاهر الكون لإرادته وعظمته وجعلها في خدمة عباده ، ومنها قوله تعالى : ﴿ والنجوم مسخرات بأمره ﴾⁽¹⁾ . وقوله أيضاً : ﴿ سخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ﴾⁽²⁾ . وفي سياق ذكر الشواهد القرآنية التي استخدمت فيها السخرية بمعاني (الضحك ، والهزء ، والتذليل) ، وحريُّ بنا الوقوف عند تفسير الطبري لقوله تعالى : ﴿ فاتخذتموهم سُخْرِيًّا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون ﴾⁽³⁾ ، فقد وقف عند ضبط كلمة (سُخْرِيًّا) بكسر السين مرة وبالضم مرة ، وقال : "... اختلف القراء في قراءة قوله ﴿ سُخْرِيًّا ﴾ فقرأه بعض قراء أهل الحجاز وبعض أهل البصرة والكوفة : ﴿ فاتخذتموهم سُخْرِيًّا ﴾ بكسر السين ويتأولون في ذلك في كسرهما أن معنى ذلك الهزء ، ويقول إنها إذا ضُمَّت فمعنى الكلمة السخرة والاستعباد"⁽⁴⁾.

ونستنبط مما سلف ذكره من مرادفات السخرية أن (الضحك والهزء) يكونان بالقول غالباً ، بينما (التذليل والقهر) يكونان بالفعل ، وأن الضحك والهزء يكونان مجالهما الرحب هو الفن والأدب ، وذلك عندما يجد فيهما الفنانون أو الأدباء وسيلة للتعبير عن آرائهم وأفكارهم النقدية تجاه ما يرون أنه منافٍ لما يحملونه من قيم وأخلاق وآراء.

الدلالة الصوتية لمادة (سَخِرَ) :

جانب الصوت لا يقل أهمية عن جانب المعنى ، فكلاهما مكملٌ للآخر في المعنى العام للفظة ، وفي هذه الوقفة نحاول استجلاء الجانب الصوتي لمادة (سخر) ، التي عرفنا أن من معانيها (الضحك ، والهزء والتذليل) ، وهنالك معانٍ أخرى : كالتهكم والهزل والتندر وغيرها^(*) ، ولكننا اكتفينا بهذه المعاني الثلاثة^(**) لقرب دلالتها على معنى السخرية من

(1) — سورة النحل ، الآية (12).

(2) — الموضع نفسه.

(3) — سورة المؤمنون ، الآية (111).

(4) — الطبري : تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) ، 371/8 .

(*) — المتبع لمعاني (السخرية) سيلاحظ أنها كثيرة ، فبالإضافة للمعاني السابقة سيجد : (التندر ، والعبث ، والذع ،

غيرها . وفي العموم ، نجد (الضحك والهزء والتذليل) توحى للسامع بالحركة القولية أو الفعلية ، فقد أجمل صاحب مقاييس اللغة⁽¹⁾ هذا المعنى فيما تدل عليه مادة (سخر) بقوله: "السين والخاء والراء أصل مطرد مستقيم يدل على احتقار واستدلال". فكيف يكون الاحتقار إذا لم يُعبر عنه بالقول ، والاستدلال بطبيعة الحال فِعْلٌ يصدر من لديه القدرة على استعمال غيره لخدمته واستعباده ، وبذلك قرئت ﴿سُخْرِيًّا﴾ في التفسير الذي ذكره الطبري لقوله تعالى : ﴿فَاتَّخَذْتَهُمْ سُخْرِيًّا ...﴾⁽²⁾ الذي ذكرناه سابقاً ، وقوله تعالى في آية أخرى : ﴿اتَّخَذْنَاهُمْ سُخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ...﴾⁽³⁾ . فبعضهم قرأ بضم السين على معنى الاستدلال ، وبعضهم الآخر قرأها بالكسر على معنى الهزء⁽⁴⁾ ، وكلا المعنيين يوحي باللين المنبعث من توالي السين والخاء والراء ، وقد وقف عند هذا الجانب نعمان طه ، مستنبطاً ما دلت عليه في المعجم اللغوية من الناحية الصوتية ، فقال : "وأصل المادة في المعجم تدور حول (اللين) من الناحية الصوتية ، فإذا تتبعناها عرفنا مقدار ذلك ، سواء أكان الحرفان (س ، خ) متواليين^(***) ... أو منفصلين ، ومن هذا يتبين لنا أن الحرفين (س ، خ) في كلمة (سخر) يوحيان باللين (التذليل) والخفاء ، وعدم الإبانة بطريقة مباشرة"⁽⁵⁾ . واللين هنا نجده في طبع الساخر ، فهو لِينٌ الطبع لاعتماده عقله ، ومن هنا يكون قوله أو فعله الساخر مؤثراً في خصمه أكثر منه لو كان طبعه يتسم بالعاطفة والانفعال ، هكذا يتضح للباحث المدقق اتفاق الدالتين (اللغوية والصوتية) لكلمة

والتهزل ، والعَطْ ، والاستخفاف) .

(**) — المقصود بما : (الضحك ، والهزء ، والتذليل) .

(1) — ابن فارس ، مادة (سخر) .

(2) — سورة المؤمنون ، الآية (111) .

(3) — سورة ص ، الآية (62) .

(4) — تفسير الطبري ، 116/23 .

(***) — في الدراسات الصوتية الحديثة المبنية على أساس تشريحي معلمي ، صُنِّفَ الحرفان (س ، خ) ضمن الأصوات المهموسة ، فيما لوحظ أن حرف (ر) حرف مجهور ، من هنا يتبين لنا أن الدلالة المعجمية تتوافق مع الدلالة الصوتية لمادة (سخر) في معنى اللين والهمس والخفاء ، وهذه الأوصاف لا يخلو منها الأسلوب الساخر عادةً . ينظر : إبراهيم أنيس : الأصوات اللغوية ، ص 20 — 21 . ومحمد ماهر فهم : فن الإلقاء ، ص 73 — 74 .

(5) — السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، ص 12 .

السخرية بدلالاتها اللغوية على (الضحك ، والهزء ، والتذليل) التي لا تخلو من صفات من قبيل (اللين والإخفاء والقهر) ، وهذه وتلك مكون رئيسي لطبيعة الساخر سواء أكان فناً أم أديباً ، ويمكن أن نستقرئ ذلك في أعمالهم الساخرة في اللوحة الساخرة إن كان رساماً، أو النص الثري إن كان كاتباً ، أو القصيدة الساخرة إذا كان شاعراً^(*).

معنى السخرية الاصطلاحي :

بعد استقصاء المعنى اللغوي للسخرية ، نتعرض الآن لتعريف السخرية في الاصطلاح ، حيث نجد (معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب) أرجع المصطلح (Irony) لأصله اليوناني ، فقال : "الكلمة اليونانية إيروينا (Eironeia) التي اشتق منها المصطلح الأوروبي^(**) ، وكانت وصفاً لأسلوب كلام إحدى الشخصيات بالملهاة اليونانية القديمة المسمى (إيرون Eiron) وكانت هذه الشخصية تتميز بالضعف والقصر مع الخبث والدهاء ، كما كانت دائماً تتغلب على شخصية الألازون (Alazon) الفخور الأحمق ، وذلك عن طريق الخداع وإخفاء ما يمتاز به من قدرة وذكاء ، ويبقى المصطلح الأوروبي يحتفظ بذلك المعنى"⁽¹⁾. فمن خلال هذا التعريف المطول نستشف أن قوام السخرية الذكاء الذي عادةً ما يخفيه الشخص الساخر مدعياً الجهل والغباء ، وهو المعنى ذاته الذي نجد كلمة (Sarcasm) تعنيه ، مثلما أشار أحد الباحثين نقلاً عن دائرة المعارف البريطانية، حيث قال عنها بأنها طريقة في الكلام يحجب فيها المعنى الحقيقي أو يعارض فيها المعنى الحقيقي باختيار كلمات معينة⁽²⁾، من هنا نجد أنفسنا أمام ثلاثة مصطلحات للسخرية كل

(*) — لقد تنبّه الشاعر "جرير بن عطية" إلى توظيف الدلالة الصوتية الساخرة لبعض المفردات في النيل من خصومه من ذلك مفردات (حَجَجَج) وهي الاستخفاف وسرعة الإناحة والحمق ، و(الجَيْتَلوط) وهو شتم للنساء، و(ضوטר) : الضخم اللقيم ، وجُوخى : اسم يُطلق على الإماء . ينظر : أنور حميدو علي فشوان ، مقال : "فن السخرية في شعر جرير" ، نُشر على الموقع : www.kau.edu.sa/show-Res .

(**) — هنالك نوع من الهجاء في الآداب الغربية يعرف باسم (ساتير Satire) ، وهو يشبه النكتة الذكية اللاذعة أحياناً ، والتصوير الكاريكاتيري الساخر المضحك أحياناً أخرى . ينظر : عزالدين إسماعيل : في الأدب العباسي — الرؤية والفن ، ص 386 .

(1) — مجدي وهبة وكامل المهندس ، ص 111 .

(2) — ينظر : محمد مصطفى سلام : شعر السخرية في العصر العباسي ، رسالة ماجستير ، ص (و) .

منها يدل على السخرية من زاوية معينة : (Irony) تحمل معنى الاستهجان والتكلم بطريقة توحى بالاشتمزاز ، و(Satire) تنبعث من موقع الشعور بالضدية ، ويُتكلّم فيها بطريقة توحى بالاستهزاء ، ومن معانيها التظاهر بالجهل في أثناء المناقشة ، إضافةً إلى كلمة (Sarcasm)⁽¹⁾، التي تركز على الذكاء المخفي .

ومن هنا ، يتضح لنا أن المصطلح الأوروبي للسخرية لا ينحصر في مصطلح واحد بعينه ، ومع ذلك فالمصطلحات الثلاثة تدل على معنى واحد ذي موقف فلسفي يتخذ من الجدل وسيلة ، مثلما استخدمه سقراط في محاوراته لأفلاطون ، حيث عمد إلى التظاهر بالجهل وإخفاء ذكائه مسلماً بآراء مختلفة عن رأيه بغية الوصول لبطلانها ؛ قاصداً من ذلك أن يوقع الطرف الآخر في الخطأ ، بحيث يدلي برأي خاطئ يضطر إلى تصحيحه بنفسه⁽²⁾، فالسخرية من هذا النوع هي أنكى أنواع النقد ، ولذا فإن بعضهم يرى أن السخرية هي حالة نفسية هادئة أميل إلى الطبع الفلسفي منها إلى طبع الشعراء⁽³⁾. ولا ننسى كذلك دور النقد الذي هو مقصد من مقاصد السخرية وهدف من أهدافها ، وهذا ما حاول الإشارة إليه التعريف التالي للسخرية ، حيث جاء فيه أنّها "لون هزليّ أدبيّ موجهٌ يقوم على النقد الضاحك أو التجريح المازي ، معتمداً على أساليب ووسائط فنية مختلفة ... منها : الصورة ، المبالغة الفنية ، التصوير الكاركاتوري^(*)، والحوار والحكاية والمفردة ونحو ذلك"⁽⁴⁾. ففي هذا التعريف محاولة مميزة لتأطير السخرية في حدود الأدب والفن ، وفيه كذلك بيان للوسائط الفنية التي تعد أساساً لبناء النص الشعري الساخر الذي لا يخلو عادةً من حوار بين الشاعر وخصمه أو حكاية ومفردة موحية أو تصوير ساخر ومبالغة فنية ، فالمبالغة بوصفها إحدى الوسائط الفنية مثلاً هي أساس النص الساخر بل أساس السخرية

(1) — الموضع نفسه.

(2) — المرجع نفسه ، ص 111 .

(3) — محمد مندور : في الميزان الجديد ، ص 140 .

(*) — يذكر عباس محمود العقاد أن "كلمة (الكاريكاتور) في اللغات الأوروبية مشتقة من الإطباق والتحميل ، كأن المصوّر الهزلي لا يزال يضيف على الصفة التي يرسمها حتى يثقلها بالإضافة والزيادة ، الكلمة في ذاتها تصويرية". ساعات بين الكتب ، ص 151 .

(4) — أحمد بن علي آل مريع : "مفهوم السخرية في الأدب وقيمتها" ، المجلة العربية ، نُشر المقال على الموقع :

نفسها .

ومن الشعرية الحديثة ، ومن خلال البحث عن تعريف حديث لمصطلح السخرية ، نجد تعريف الناقد الفرنسي (هنري موريه)^(*) H. Morier ، حيث يقول : "السخرية هي تعبير ضمير مأخوذ بالنظام والعدل عن سخطه إزاء انقلاب وضع يخاله طبيعياً ، عادياً ، واضحاً ومعقولاً . وقوام هذا التعبير هو الضحك باستخفاف مرة من مظهر الخلل أو الضعف هذا ، عن طريق التنديد به وفضحه بطريقة انتقامية تركز بدورها على قلب دلالة الكلمات (Antiphrase) أو على وصف لوضعية متعارضة كلية مع الوضعية الواقعية (Anticatstase) ، وبذلك تتم إعادة الأمور إلى نصابها"⁽¹⁾. فهذا التعريف يعطي السخرية بُعداً ثورياً هدفه تغيير الواقع المرفوض وفضحه والتنديد بمظاهر خلله وضعفه ، وقوام كل ذلك الضحك والاستهزاء والاستخفاف من أوضاع يرى فيها الساخر تعارضاً مع ما يقضيه العقل والمنطق الذي يحكم أي مجتمع بشري سوي خالٍ من مثل هذه العيوب والتشوهات ، ودور الساخر إزاء ذلك كله هو إعادة الأمور إلى نصابها مثلما أكد ذلك الناقد الفرنسي (هنري موريه) في كلامه السابق .

المفهوم البلاغي للسخرية :

وبالانتقال إلى مفهوم السخرية البلاغي نجد لها طريقة من طرق الكلام وصياغته يعبر بها المتكلم عن أغراض بلاغية متعددة ، وهذا ما أشار إليه (بمجدي وهبة) عندما قال: "السخرية طريقة في الكلام أو في الكتابة يعبر بها الشخص عن عكس ما يقصده بالفعل ، والغرض منها يكون هجاءً مستوراً أو توبيخاً أو ازدراء"⁽²⁾. ومثال ذلك ما أورده المؤلف نفسه في كتاب آخر ، حيث قال كقولك للبخيل : "ما أكرمك" أو قول الياثس معبراً عن

(*) — باحث وناقد فرنسي .

(1)- Henri Morier, Ironie, in dictionnaire de poétaa et de. Rhétorique, 3ème édition, P.U.F, Paris, 1981, P. 597.

نقلًا عن : علي كرزاي : استراتيجية الموقف السخري عند أبي نواس ، نُشر المقال على الموقع :

. www.members.lycos.fr

(2) — معجم مصطلحات الأدب ، ص 263 .

التحسر "ما أسعدني"⁽¹⁾، ومثل هذا الأسلوب البلاغي ما ذكره الزمخشري في تفسيره الكشاف عن هذا الموضوع ، حيث أورد ما نصّه : "لو قال لك صاحبك ، وقد كتبتَ كتاباً بخط رشيّق وأنتَ شهيرٌ بحسن الخط : أأنتَ كتبتَ هذا ؟ وصاحبك أُمّي لا يحسن الخط ولا يقدر إلاّ على خرْمَشَةٍ*" فاسدة ، فقلتَ له بل كتبتَه أنتَ ! وكان قصدك بهذا الجواب تقريره لكَ مع الاستهزاء به ، لا نفيه عنك ، وإثباته للأُمّيّ أو المخرمش لأن إثباته — والأمر دائر بينكما — للعاجز منكما استهزاء به وإثبات للقادر"⁽²⁾.

فعدم القصدية في الكلام الظاهر واتباع التورية فيه يجعل له وقعاً على المستهدف أكثر نكايّة وتأثيراً مما لو كان مباشراً وصريحاً ؛ ومن هنا تتقاطع السخرية مع البلاغة ، حيث وجدت فيها مجالاً رحباً لاستخدام أدوات بلاغية من قبيل الكناية والتورية وما شابههما ، وقد ذكر (السيد عبدالحليم حسين)⁽³⁾ بعضاً من هذه الأدوات البلاغية التي يجب أن يمتلكها الساخر فقال : "يقدر على السخرية ويوفيهما حقّها الشخصُ المرحُ والفكهُ المجلسُ، الحلوُ الحديثُ ، البارِعُ التصويرِ ، السريعُ الملاحظةُ ، الدقيقُ المقارنةُ ، الحاضرُ البديهةُ ، فيتميز اللفظ الموجز والأسلوب السهل ، والكلمات المعبرة فيعمد إلى التعريض والتلويح والكناية والرمز ، واللفتة والإشارة" ، فالجانب البلاغي في النص السابق مهم في رسم الصور الساخرة وتنميق العبارات الموجزة واللاذعة المؤدية لمعانيها العميقة التي تحمل نقداً لاذعاً في الغالب ولا ننسى وسائل إخفاء الكلام اللاذع من تورية وكناية وتعريض وتلويح ورمز موحٍ ولفتة معبرة وإشارة بليغة تؤدي غرض صاحبها في اللوحة الساخرة إن كان رسّاماً أو في النص إن كان شاعراً أو ناثراً ؛ لذا نجد النقاد والبلاغيين القدماء قد ذكروا مفهوم السخرية بمعانٍ عدة منها المعاني السابقة وأضافوا إليها الهزل الذي يراد به الجدل مثلما ذكر عبد الله بن المعتز (ت.296هـ) في بديعه⁽⁴⁾ ، بوصفها تدخل ضمن السخرية، وأضاف أبو منصور الثعالبي (ت.429هـ) في فقه اللغة فصلاً بعنوان "في

(1) — معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، ص112 .

(*) — الخرْمَشَةُ : هي إفساد الكتاب .

(2) — 194/3 .

(3) — الجاحظ الأديب الساخر ، ص25 .

(4) — ص111 — 112 .

المدح الذي يراد به الذم فيجري مجرى التهكم والهزل⁽¹⁾، بعدها يصبح المعنى السابق نفسه شائعاً عند الزمخشري (ت.538هـ) ومَن جاء بعده ، حيث يورد لنا في الكشف قوله في هذا الباب ما نصه : "... هذا من معاريف الكلام ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الرأفة من علماء المعاني : والقول فيه : أن قصد إبراهيم^(*) لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم ، إنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضي، يبلغ فيه غرضه من إزامهم الحجة وتبكيتهم"⁽²⁾، وقد ورد هذا النص ضمن تفسير الزمخشري لسورة الأنبياء .

وفي القرون المتأخرة نجد ابن حجة الحموي (ت.837هـ) يذكر في خزنة الأدب وغاية الأرب "الهزل الذي يراد به الجدل"⁽³⁾، والتهكم⁽⁴⁾، وتجاهل العارف⁽⁵⁾، والتورية⁽⁶⁾، والتنكيث⁽⁷⁾، ضمن تناوله لأبواب مختلفة من أبواب البلاغة ، وقد أراد الباحث من خلال استعراض الاستخدامات البلاغية والنقدية السابقة للسخرية التأكيد على أن السخرية تعددت مفاهيمها البلاغية ، وذلك مرده أنها أكثر ما تمس من العلوم علم البلاغة^(**) بوصفه علماً يعتمد فيه الشعراء والكتّاب وسواهم على لغة التلميح أكثر من التصريح والإخفاء بدلاً من الإظهار والإيجاز دون الإطالة ، ولاشك أن في ذلك متعة عقلية وفكرية قد لا نجدتها في الصريح من الخطاب ، أو المباشر من الكلام ، ومن هنا "يكون الرمز والإيماء في السخرية أنكى من الإطالة ، وذلك لطبيعة السخرية التي تجافي الإطناب كل

(1) — ص 314 .

(*) — عندما سأله قومه في قوله تعالى : ﴿ أنت فعلت هذا بالهتينا يا إبراهيم ﴾ ، فأجابهم إبراهيم عليه السلام ساحراً: ﴿ قال بل فعله كبيرهم هذا فسألوههم إن كانوا ينطقون ﴾ ، سورة الأنبياء ، الآيات (62)، (63).

(2) — الكشف ، 124/3 .

(3) — خزنة الأدب وغاية الأرب ، 126/1 .

(4) — 215/1 .

(5) — 274/1 .

(6) — 39/2 .

(7) — 307/2 .

(**) — سبق لعمان طه أن أكد على هذه المسألة في كتابه السخرية في الأدب العربي حتى القرن الرابع الهجري،

المخافة ؛ إذ إنها نتاج العقول الذكية وتخطب في الأغلب الأعم العقول اللمّاحة⁽¹⁾. ومن هنا ، لا نستغرب الاهتمام القرآني باستخدام السخرية باعتبارها أسلوباً بلاغياً في الرد على المعاندين لله ورسوله والمؤمنين في كثير من الآيات الكريمة منها قوله تعالى في شأن فرعون: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾⁽²⁾. وقال في شأن الكفار: ﴿ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾⁽³⁾. واستخدام قلب دلالة التبشير بمعنى التهديد فقال: ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾⁽⁴⁾.

الفرق بين السخرية والفكاهة :

بعد أن تعرفنا على المعنى الاصطلاحي للسخرية نحاول فيما يلي التعريف بالفرق بين مصطلحي (السخرية والفكاهة) ، حيث نجد السخرية قد التّبَسَّت بالعديد من المصطلحات القريبة منها كالتهمك والهزل والفكاهة وغيرها ، إلا أن الفكاهة أكثر هذه المصطلحات اختلاطاً بالسخرية من غيرها ، وذلك راجع لدلالة كل منهما على جانب من جوانب الضحك ، وإن كانت "الفكاهة لا تُستملح من كل شخص ، وإنما تُستملح من الشخص الفكّه الموهوب"⁽⁵⁾. فإن السخرية ملكةٌ نجدها عند الخاصة ممن لديه استعداد فطري لتنمية هذه الملكة ، وقد أشار العقاد إلى العبث والغرور بوصفهما بايين من أبواب السخر ، بل هما جماع أبوابه كافة في رأيه⁽⁶⁾، من هنا نرى أن الفكاهة لا يشترط فيها العبث والغرور ، فالشخص الفكّه ضحكه سارٌّ ومُبهِج ، فيما الساخر ضحكه مؤلم ومُبكٍ في بعض الأحيان ، ولعله بذلك نستطيع الرد على الباحث (أحمد عبدالمجيد خليفة) الذي نَحَت من مصطلحي (الفكاهة والسخرية) ما أسماه (الفكاسخرية)⁽⁷⁾، معتبراً أنهما بمعنى واحد ؛ إذ نظر إلى الزاوية التي يلتقي فيها المصطلحان ، والتي تكمن فيما يحدثه كل منهما

(1) — نعمان طه : السخرية في الأدب العربي حتى القرن الرابع الهجري ، ص 49 .

(2) — سورة الدخان ، الآية (46).

(3) — البقرة ، الآية (174).

(4) — النساء ، الآية (137).

(5) — فتحي محمد معوض أبو عيسى : الفكاهة في الأدب العربي إلى نهاية القرن الثالث الهجري ، ص 32 .

(6) — يُنظر : عباس محمد العقاد : جحا الضاحك المضحك ، ص 37 — 38 .

(7) — يُنظر : فن الفكاهة والسخرية عند شعراء مصر المملوكية ، ص 16 .

من الضحك من ناحية ، وما يشتركان فيه من هدف نقدي تهذيبي من ناحية أخرى، وفي المقابل ساوى بين أثر كل منهما على المتلقي أو المستهدف بهما ، كما أغفل مصدر كل من المصطلحين⁽¹⁾، أي : مَنْ الساخر ؟ وَمَنْ الفكاهي ؟ أم أهما يصدران من الشخص نفسه ؟ وربما يمكننا الإجابة على ذلك بالقول أن السخرية "تعبير عن نوع من اللاتكيف [كذا] الخاص الكامن في الشخص تجاه المجتمع"⁽²⁾. وهذه النظرة لا نجدها إلا عند خاصة الناس ممن يشعرون بأن المجتمع الذي يعيشون فيه غير مقدر لآرائهم وأفكارهم، مثلما نجد ذلك واضحاً عند الشاعر أبي العلاء المعري على سبيل المثال ، أما الفكاهة^(*) فهي "ظاهرة طبيعية ومزية إنسانية وجزء روعي من كل إنسان"⁽³⁾، وقد فرّق أحد الدارسين بين الضحك الصادر من السخرية والضحك الصادر عن الفكاهة فقال : "إن الضحك المنبعث من الفكاهة ضحك سارّ ومبهج ، لكن السخرية مؤلمة موجعة كئيبة، ولو انبعث منها أو معها الضحك فهو ضحك حارّ كالبكاء"⁽⁴⁾. وربما ذلك راجع لطبيعة النفس الصادر عنها كل من ضحك الفكاهة أو ضحك السخرية .

المبحث الثاني

العلاقة بين السخرية والهجاء

تمهيد :

-
- (1) — المرجع نفسه ، ص 14 — 15 .
 - (2) — هنري برجسون : الضحك ، ص 11 .
 - (*) — هناك نوعان من الفكاهة في الآداب الأوروبية ، الأولى : يصطلح عليه (Humour) ، والثانية : يصطلح عليها (Wit) . فتحي محمد معوض أبو عيسى : الفكاهة في الأدب العربي ، ص 15 .
 - (3) — شفيق طبارة : "الفكاهة في التاريخ" ، مجلة الأديب ، 41/1 ، س (9) ، عام 1944 م .
 - (4) — أحمد بن علي آل مريع : "مفهوم السخرية في الأدب وقيمتها" ، المجلة العربية ، نُشر المقال على موقع المجلة :

الهجاء غرض تقليديّ في القصيدة العربية ، عُرف منذ العصر الجاهلي ، وقد كان يتسم بطابع العصبية القبلية ، ومن الأمور التي كانوا يتهاجون بها الحب والغدر والبخل والطيش وغيرها. ومع مرور الوقت ، وتطور الحياة ظهرت أنواع جديدة من الشعر نَحَتْ منحى الهجاء في ظاهرها، لكنها في الحقيقة اختلفت عنه بما تتضمنه من سمات وخصائص لم يعرفها الهجاء بمفهومه الذي ظهر عليه في العصر الجاهلي ، من اعتماده الجدية والإقذاع بوصفهما أسلوباً له ، ومن هذه الأنواع(*) شعر السخرية الذي يمتاز بخصائص تكاد تكون معاكسة لأسلوب الهجاء، وإنّ بدا لكثير من الدارسين القدماء والمحدثين إنهما بمعنى واحد فمن القدماء نجد صاحب الوساطة⁽¹⁾ (ت.392هـ) يقول في هذا الصدد معتبراً أنهما بمعنى واحد : "فأما الهجو فأبلغه ما جرى مجرى الهزل والتهافت ، وما اعترض بين الصريح والتعريض وما قربت معانيه وسهّل حفظه ، وأسرع علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس". وقد نقل عنه ابن رشيق القيرواني (ت.465هـ) العبارة نفسها عندما تحدث عن الهجاء في كتابه العمدة⁽²⁾، ويضاف إلى ذلك أن القدماء لم يصطلحوا على أن لشعر السخرية غرضاً مستقلاً كغيره من أغراض الشعر التقليدية ، بل ظلوا يُحلقونه ، بالهجاء تارة ، وبالنوادير والفكاهات تارة أخرى ، مثلما فعل الحصري القيرواني (ت.453هـ) في (جمع الجواهر والملح والنوادر) ، والنويري (ت.733هـ) في كتابه (نهاية الأرب) في الجزء الثالث منه، وابن حجة الحموي (ت.837هـ) في كتابه (خزانة الأدب وغاية الأرب) الذي تناول فيه الشعر الساخر تحت أبواب مختلفة⁽³⁾، مثلما مرّ بنا قبل هذا المبحث من استعماله لمصطلحات مختلفة يندرج تحتها الشعر الساخر كالتهكم ، والتنكيت ، وتجاهل العارف وغيرها .

أما حديثاً ، فنجد الأمر نفسه يتكرر عند عدد من الدارسين الذين زاجوا بين المصطلحين تحت ما سموه (الهجاء الساخر) ، ومن هؤلاء الدارسين الذين استخدموا هذه

(*) — من الأنواع الأخرى (النقائض وشعر الكدية والصعلكة وشعر السخف والسماحة والرقاعة) ، التي ارتبطت أغلبها بالحياة الشعبية ، لاسيما الأخيرة منها .

(1) — علي الجرجاني ، ص 24 .

(2) — 71/2 .

(3) — ينظر : 126/1 — 215 — 274 ، 39/2 — 307 .

التسمية شوقي ضيف في سلسلة دراساته عن الأدب العباسي ، ومحمد محمد حسين في كتابيه (الهجاء والهجاءون في الجاهلية) ، و(الهجاء والهجاءون في صدر الإسلام) ، وإليها الحاوي في كتابه فن الهجاء وتطوره عند العرب ، وعباس بيومي (الهجاء الجاهلي — صورته وأساليبه الفنية) وغيرهم ، وقد نبه إلى هذا أحد الدارسين في مقال نُشر على موقع (المجلة العربية) تحت عنوان "مفهوم السخرية في الأدب وقيمتها"⁽¹⁾. وقد انعكس هذا الخلط بين المصطلحين على دراسة الشعر الساخر الدراسة الفنية التي يستحقها بوصفه قيمة فنية وأدبية أثار في الأدب العربي الذي غلب عليه الطابع الجاد في أغلب عصوره ، وحتى لا يقع الباحث في الخلط نفسه الذي وقع فيه غيره ، سيُحاول دراسة الفروق بين المصطلحين^(*) من الناحيتين اللغوية والاصطلاحية ، وذلك على النحو التالي :

الهجاء في اللغة :

أجمعت معظم المعاجم على معنيين اثنين لمعنى (الهجاء) ، معنى بعيد عن مفهوم الغرض الشعري المعروف ، وهو أن الهجاء بمعنى تعلّم حروف الهجاء ، ومعنى قريب لمفهوم غرض الهجاء ، وذلك كما ذكر الزمخشري⁽²⁾ "ومن المجاز : فلان يهجو فلاناً هجاءً : يُعَدُّ معاييه ، وهو هَجَاءٌ وله أهاجي" ، فيما نجد ابن منظور⁽³⁾ يؤكد على معنى (السب) "هجا هَجَاه — يهجو هَجَوْاً وهِجَاءً ، وَتَهَجَاءُ سَبُّهُ بالشعر وهو خلاف المدح ... والمرأة تهجو زوجها أي تَدُمُّ صَحْبَتَهُ" ، إضافةً إلى ذلك نجد المستشرق (رجيس بلاشير) يرجع لفظة "الهجاء" لغوياً إلى مصدر الفعل (هجا) أي "طَعَنَ عن عمد في خصم يملك على سبيل الافتراض القدرة على أن يرد بهجاء مماثل"⁽⁴⁾.

فالمعاني السابقة تجتمع في معنى الرد المباشر بالسب وذكر معايب الخصم والتعمد

(1) — أحمد بن علي آل مريع : مفهوم السخرية في الأدب وقيمتها ، المجلة العربية على الموقع الإلكتروني :

. www.Arabicmagazine.com

(*) — "معنى السخرية لغةً واصطلاحاً" سبق للباحث تناوله في المبحث الأول من هذا الفصل ، ينظر: ص10،

ص13.

(2) — أساس البلاغة ، مادة (هَجَوَ) .

(3) — لسان العرب ، مادة (هَجَوَ) .

(4) — تاريخ الأدب العربي ، 39/1 .

والقصدية في قهر الخصم والنيل منه ، وهذه المعاني تكون صادرةً عن عاطفة الغضب وردة الفعل المباشرة .

معنى الهجاء في الاصطلاح :

وقد عرّف بعض الدارسين الهجاء بمعناه الاصطلاحي ، ومن ذلك قولهم : "الهجاء في الأدب وصفٌ مساوئ الآخرين وعيوبهم بعد تضخيمها وسبهم وعتهم بالصفات القبيحة"⁽¹⁾ . ومن التعريفات الدقيقة للهجاء الذي يحدد ماهيته في الأدب ، ذلك بأنه "أدب غنائيّ يصوّر عاطفة الغضب أو الاحتقار والاستهزاء ، ويكون موضوع العاطفة الفرد أو الجماعة أو الأخلاق أو المذاهب .."⁽²⁾ .

من خلال هذين التعريفين ، يتضح لنا أن الهجاء تصوير لعاطفة الغضب قد يرجع لأحد أمرين ، الأول أن يكون دفاعاً عن ظلم أو حيف تعرض له الشخص الهاجي ، وهذا مبرر إلى حد ما ، أو يكون الهجاء طبيعة في الإنسان وسجية خُلق عليها . إضافةً إلى ذلك، فإن الهجاء "مرتبط بالصبغة الإنسانية وبصراع الأفراد في حياتهم الاجتماعية ، ذلك الصراع الذي توجّهه عدة عوامل منها الحسد ومنها تعارض المصالح والرغبات"⁽³⁾ . ومن هنا تنوع الهجاء في الأدب العربي تبعاً لتنوع هذه العوامل الموجبة له .

وبعد دراستنا لمعنيي (السخرية والهجاء) لغةً واصطلاحاً ، نحاول الآن توضيح أوجه الاختلاف والاتفاق بينهما ، وذلك على النحو التالي :

أولاً — أوجه الاختلاف بين السخرية والهجاء :

الوجه الأول :

يتعلق بطريقة القول أو الخطاب لكل منهما ، "فالهجاء طريقة مباشرة في الهجوم على العدو، لكنّ السخرية غير مباشرة في الهجوم"⁽⁴⁾ ، فالواضح من خطاب الهجاء اعتماده

(1) — إميل يعقوب وآخرون : قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية ، ص 398 .

(2) — محمد محمد حسين : الهجاء والهجّاءون في الجاهلية ، ص 16 .

(3) — إدريس الناقوري : المصطلح النقدي في نقد الشعر ، ص 428 .

(4) — نعمان أمين طه : السخرية في الأدب العربي في نهاية القرن الرابع الهجري ، ص 10 .

المباشرة ، وذلك راجع لطبيعة السب والشتم اللذين لا يكونان إلا علناً ، فهو لا يحتاج إلى وسائط بلاغية كالكناية والتورية والتعريض وما إلى ذلك ، فيما تكون هذه الوسائط أهم ما تركز عليه السخرية ، وهذا ما يجعل السخرية تتفرد على الهجاء باكتسابها بُعداً فلسفياً عميقاً مما يجعلها أداةً صالحةً للنقد الهادف والتقويم والإصلاح والتطوير⁽¹⁾.

الوجه الثاني :

يتصل هذا الفرق بطبيعة كل من السخرية والهجاء ، فقد تنبّه لهذا الفرق إبراهيم عبدالقادر المازني⁽²⁾ عندما قال ، "الشاعر حين يسخر يتناول بُعد ما بين الأشياء والطبيعة ويركض في حلبة يتقابل عند طرفيها الواقع من ناحية ومثل الكمال من ناحية أخرى، وقد يفعل ذلك جاداً أو متفكهاً مداعباً أي أنه قد يستوحى إرادته ومشاعره أو يستملي عقله ، فإن كانت الأولى فهو هاجٍ منتقم ، وإن كانت الثانية فهو ساخر". أي أن الهجاء يصدر بطبيعته عن عاطفة الغضب ؛ لأن الشاعر يستوحى مشاعره ثم يعبر عن تلك العاطفة بالهجاء . في حين أن الساخر يُعجل عقله ، فكل ما يصدر عنه بعد هذا الإعمال يكون أكثر تأثيراً وأشد إيلاماً من ردة الفعل الفورية المحكومة بالانفعال والعاطفة ، ومن هنا يتضح "أن الهجاء أدب الغضب المباشر والثورة المكشوفة .. في حين السخرية هي أدب الضحك القاتل والهزء المبني على شيء من الغموض"⁽³⁾.

وهذا يعني أن كلاً من السخرية والهجاء ينطلقان من نقطة الغضب بوصفه سبباً يدعو للدفاع والرد ، إلا أن السخرية لا تقف عند لحظة الغضب هذه ، بل تتعدّها لمرحلة التفكير في الرد المناسب والمؤثر ، فيما الهجاء ردة فعل مباشرة لفعل مضاد .

الوجه الثالث :

اعتماد السخرية على التصوير والتشخيص ، "والحقيقة أن هذا اللون هو الذي يظهر فيه الشاعر قدرته على التشخيص وصياغة صورته الفنية في أسلوب يتلقّفه الناس

(1) — ينظر : أحمد عبدالمجيد خليفة : فن الفكاهة والسخرية عند شعراء مصر المملوكية ، ص 14 .

(2) — حصاد الهشيم ، ص 258 .

(3) — ياسين أحمد فاعور : السخرية في أدب إميل حبيبي ، ص 111 .

فيردّونه ، على حين أن الهجاء العادي لا يحتاج من الشاعر التمرس أكثر من قاموس مليء بالبذاءة والفحش ، لذلك لم يبرع في السخرية والفكاهة إلاّ الشعراء المتمكّنون⁽¹⁾ ، بينما الهجاء برع فيه الكثير من الشعراء ، فقلّمًا يخلو ديوان شاعر منه .

الوجه الرابع :

السخرية نقد ، والهجاء — كذلك — نقد ، إلاّ أن النقد في السخرية يبدو أكثر وضوحاً في تلمّسه لجوانب الحياة ومعالجة سلبيات الواقع وتقويم اعوجاجه ، "فالأدب الساخر هو أرقى أنواع النقد للحياة بمختلف صورها"⁽²⁾ ، وقد زخر أدبنا العربي شعراً ونثراً ولاسيما في العصر العباسي بالكثير من الآثار التي عُنيت عناية فائقة بقضايا الحياة ومشاكلها وهمومها ، مثلما نجد عند أبي نُؤاس ، والجاحظ ، وابن الرومي ، وبديع الزمان الهمذاني وسواهم ممن وضعوا مشاكل عصرهم نُصّب أعينهم . فيما يظل النقد في الهجاء رهناً بردة الفعل والدفاع عن الذات أو القبيلة أو الجماعة ، كما أنه قد يكون نابعاً من الروح الجماعية التي يفنى فيها الشاعر ويقدمها على نفسه وطموحاته وآرائه ، فيصبح الناطق الرسمي باسم هذه الجماعة وذلك مثلما حدث مع الشاعر "حسان بن ثابت" بعد إسلامه ، فقد تولى مهمة الدفاع عن المسلمين ، والرد على قريش وما يقوله شعراؤها ، حتى أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — أعطاه الإذن بذلك ، عندما قال له (اهْجُهم ، أو هاجهم ، وجبريلُ معك)⁽³⁾ .

فيما يكون النقد في السخرية ناتجاً عن نظرة فلسفية لتصرفات الأشخاص ومشاكل الحياة وعدم الاستسلام أمامها بسهولة بل مواجهتها بالنقد اللاذع وكشف عوارها .
والآن نورد الأبيات التالية التي تمثل العصر العباسي لشاعر واحد هو أبو نُؤاس ، وقد اختلفت في كون القصيدة الأولى قالها الشاعر في الهجاء ، حيث هجا فيها إسماعيل بن صبيح مولى الأمويين ، وكاتب الخليفة الأمين ، وذلك حيث يقول : (طويل)

(1) — محمد عبدالعزيز الموافي : حركة التجديد في الشعر العباسي ، ص123 .

(2) — تائر طمان : المشهد الإبداعي الجديد في سوربة السمات الأساسية للسخرية في مجموعة (التداوي بالأدب) ،

جريدة الأسبوع الأدبي على الموقع : www.awu-dam.org .

(3) — مسلم بن الحجاج : صحيح مسلم (كتاب فضائل الصحابة) ، مج4/ص1933 .

أَلَا قُلْ لِإِسْمَاعِيلَ إِنَّكَ شَارِبٌ بِكَأْسِ بَنِي مَاهَانَ ضَرْبَةً لَازِمٌ
أَتَسْمُنُ أَوْلَادَ الطَّرِيدِ وَرَهْطَهُ يَا هِزَالَ آلِ اللَّهِ مِنْ نَسْلِ هَاشِمٍ
وَإِنْ ذُكِرَ الْجَعْدِيُّ أَذْرَيْتَ عِبْرَةً وَقُلْتَ أَدَالَ اللَّهُ مِنْ كُلِّ ظَالِمٍ
وَتُخْبِرُ مَنْ لَاقَيْتَ أَنَّكَ صَائِمٌ وَتَعْدُو بِحَجْرٍ مَفْطَرًا غَيْرَ صَائِمٍ
فَإِنْ يُسَّرِ إِسْمَاعِيلُ فِي فَجْرَاتِهِ فَلْيَسَّرْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
بِنَائِمٍ⁽¹⁾

في هذه الأبيات يهجو أبو نواس إسماعيل بن صبيح كاتب سر الأمين ومولى
الأمويين متهماً إياه بإضعاف آل هاشم وإهزاهم زمن بني أمية، ثم يكشف ادعاءه الصيام
في العلن وأمام الناس وإذا ما تخفى في بيته يغدو مفطراً، مذكراً إياه بأن أمره هذا لن يظل
طيّ السر والكنمان طويلاً؛ لأن أمير المؤمنين ليس عنه بغافل ولا نائم كما يتخيل.
فيما نأخذ أبياتاً أخرى للشاعر نفسه يصف فيها مجموعة جوارٍ لصاحب حانة اسمه
(موسى) ، حيث يصورهن في صورة (حنافس) ساخرًا من أشكاهنّ وبشاعة أصواتهن حين
يغنين ، وذلك حيث يقول :

إِذَا مَا كُنْتَ عِنْدَ قِيَانِ مُوسَى فَعِنْدَ اللَّهِ فَاحْتَسِبِ السَّرُورَا
حَنَافَسٌ خَلْفَ عِيدَانٍ قَعُودٌ يُطْوِلُ قَرْبَهَا الْيَوْمَ الْقَصِيرَا
إِذَا غَنَّيْنَ صَوْتًا كَانَ مَوْتًا وَهَجَّنَ بِهِ عَلَيْكَ الزَّمْهَرِيرَا⁽²⁾
فهذه أبيات قليلة أراد الباحث من خلالها التأكيد على الفروق الواضحة بين الهجاء

(1) — ديوانه ، ص514 ، الجعديّ لقب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية .

(2) — المصدر نفسه ، ص541 .

والسخرية من خلال الجوانب والأوجه التي ذكرناها في هذا البحث .
وقد لخص أحد الباحثين⁽¹⁾ (الفروق الدقيقة) بين (الساخر) و(الهاجي) في خمسة
فروق فقال :

- 1 — الساخر لأنه هازئ ، فهو متكبر بطبعه ، والهاجي قد يكون غير ذلك .
- 2 — الساخر فنان مطبوع ، طحنته المموم وصقلته التجارب ، والهاجي قد يكون متكلفاً .
- 3 — الساخر لا يبحث طويلاً عن العيوب ؛ لأنها خامئة سهلة أمامه ، أما الهاجي فباحثٌ مجتهد مؤرق الفؤاد ، مشغول الذهن ، مكدود الأعصاب ، معه أدوات بحثه ، وقد يكون ما يبحث عنه نادراً بين الندرة .
- 4 — الساخر فنان مخترع لا يخترع العيوب والنقائص وإنما يخترع شكلها الفني وأسلوبها الهازئ ، والهاجي فنان مخترع يهتم بحشد العيوب والنقائص ، واختلاف أساليب السباب وألفاظها ، فمجهوده في الاختراع يصرفه في إحصاء قدر أكبر من النقائص والعيوب يهجم بها على هذا ، أو يرد بها ذاك .
- 5 — الساخر محترف يحاول أن يدهش هذه الآذان وتلك الأنفس التي تنتظر لترفعه فوق نظرائه أو لتضعه في الحضيض ساخرة من سخريته ، وهو يصدر في عمله عن روح ناقدة تُجيد تمييز الجيد من الرديء والحسن من القبيح كما يصدر في عمله عن رغبة قوية في الإصلاح والكمال . والهاجي إنسان يحس النقص في طبعه ونفسه فيفخر بهما، ليرفعهما على الآخرين ، فيهاجم هذا من أجلهما أو يدفع ذاك عنهما صادراً في عمله عن روح حانقة شريرة ، ورغبة شديدة في التجريح والهدم .

وبهذه الفروق الخمسة حاول الباحث (يس قميح) التفريق بين الساخر والهاجي مؤكداً على أن السخرية لها من الملامح والسمات ما يميزها عن كل الفنون الشعرية الأخرى ، وعن الهجاء بخاصة⁽²⁾، وهذا بطبيعة الحال يؤيد ما حاولنا التأكيد عليه في هذا البحث من الدراسة ، وإن كنا لا نرى انقطاع الصلة تماماً بين السخرية والهجاء ؛ لأن شاعر الهجاء هو نفسه شاعر السخرية في أدبنا العربي ، مثلما سنرى عند عدد كبير من

(1) — ينظر : يس سعد محمد إبراهيم قميح : سخرية المتنبي في كافورياته ، رسالة ماجستير ، ص 14 .

(2) — ينظر : الموضوع نفسه .

شعراء هذه الدراسة أو غيرهم من شعراء العربية الذين كانوا شعراء هجّائين في الأصل مع إبداعهم بالقدر ذاته وربما أكثر قليلاً في فن السخرية ، ومن هنا لم نجد في شعرنا القديم شاعراً اختص بشعر السخرية حصراً ، بل على العكس من ذلك وجدنا شعراء هجاء أبداعوا أبياتاً ومقطوعات وقصائد ساخرة جنباً لجنب مع إبداعهم لأشعار الهجاء المتعددة القوالب الشعرية كذلك ، وعليه يمكننا تعداد أوجه الاتفاق بين السخرية والهجاء في مثل هذه الجوانب ، وذلك فيما يأتي.

ثانياً — أوجه الاتفاق بين السخرية والهجاء :

ومن خلال التوصيف السابق لأوجه الاختلاف بين مصطلحي السخرية والهجاء من جانب والسخر والمهاجي من جانب آخر يمكن تبين أوجه الاتفاق بينهما فيما يلي :

الوجه الأول :

الاتفاق في الخطاب النقدي ، فالسخرية نقد للآخر وتجريح له ، كما أنها نقد للحياة وكشف لعيوبها وسلبياتها ، والهجاء — كذلك — نقد وتجريح للخصم سواء أكان دفاعاً عن النفس ، أو قد يكون طبيعة في نفس الهجّاء وسجّية فيه ، وهذا الاتفاق بين المصطلحين وصفه أحد الباحثين بأنه تمازج من الناحية الوظيفية ، وذلك عندما قال "تمتزج السخرية بالهجاء من ناحية الوظيفة ، ولكنهما يفترقان من ناحية المادة أو الطبيعة التي يشتمل عليها كل منهما"⁽¹⁾، وهذا من أهم أوجه الاتفاق بين المصطلحين .

الوجه الثاني :

اعتماد كل من السخرية والهجاء الصور البلاغية كالتشبيه والمبالغة والتورية، لغرض تضخيم عيوب الخصم والنيل منه حتى ليظن أنهما نوع واحد ، وذلك مثلما قال عباس بيومي : "السخرية في الهجاء — عندنا — تقوم بدورين ، جذب المتلقي وشدّ السامع نحو

(I) — نعمان أمين طه : السخرية في الأدب العربي ، ص 10 .

الهجاء ، ودحر المهجور بإضحاك الناس عليه"⁽¹⁾. غير أن السخرية أكثر تركيزاً على رسم الصور المضحكة وتعهداً لها .

الوجه الثالث :

اشترك السخرية والهجاء في كونهما وسيلتي دفاع يدافع بهما الساخر عن نفسه وآرائه وأفكاره ، الهجاء — كذلك — يدافع عن نفسه وربما يتجاوز دفاعه عن نفسه إلى الدفاع عن جماعته كقبيلته أو جماعته الدينية ، مثلما مر بنا في العصر الجاهلي أو صدر الإسلام مع حسان بن ثابت — على سبيل المثال — . الذي كان المدافع الأول عن حمى القبيلة ، ولما جاء الإسلام أصبح المدافع الأول عنه ضد شعراء المشركين ومن مناصري الدعوة الجديدة⁽²⁾، الأمر نفسه سنراه عند شعراء السخرية العباسيين الذين استماتوا في الدفاع عن آرائهم وأفكارهم⁽³⁾.

ومن خلال النظر إلى أوجه الاختلاف وأوجه الاتفاق السابقة بين مصطلحي السخرية والهجاء نتوصل إلى نتيجة مفادها أن نقاط الاختلاف بينهما أكثر من نقاط الاتفاق ، ومن هنا فحريٌّ بالدارسين التفريق بين المصطلحين ، وعدم الخلط بينهما خلطاً يقلل من أهمية الفن الشعري الساخر في الأدب العربي ، ومن النصوص الشعرية الكثيرة التي نُظمت فيه ، والتي عدّها كثير من الدارسين ضمن الهجاء من دون أن يتبينوا خصائصه الفنية الساخرة ، كما يجب عليهم ملاحظة أن السخرية في شعرنا العربي لها جوانب تبرز فيها مع الهجاء من الناحية الوظيفية لا تتعدّها لسواها .

(1) — الهجاء الجاهلي — صورته وأساليبه ، ص 202 — 203 .

(2) — ينظر : محمد محمد حسين ، الهجاء والمهجّعون في الجاهلية ، ص 70 ، 211 .

(3) — ينظر : الفصل الثاني ، ص 44 ، 133 .

المبحث الثالث

السخرية قبل العصر العباسي

ستحاول الدراسة في هذا المبحث التأكيد على معرفة الأدب العربي — والشعر خاصةً — لفن السخرية قبل العصر العباسي ؛ وذلك للرد على المنكرين لهذه المسألة المهمة ، والذي دعا لمناقشة هذه المسألة هو ما نبّه إليه نعمان طه في كتابه "السخرية في الأدب العربي حتى القرن الرابع" ، من إنكار المستشرق الإنكليزي مرجليوث(*) لمعرفة العرب للفكاهة والسخرية ، وتبعه في ذلك محمد خلف الله أحمد في كتابه "دراسات في الأدب الإسلامي" (***) ، على الرغم من رد نعمان طه عليهما ، إلا أن رده كان في عجلة ، مثلما أشار هو نفسه إلى ذلك⁽¹⁾، ولكنّ الباحث أراد أن يعرض الموضوع بشيء من التفصيل مورداً ما يدعم بها رأيه في التصدي لهؤلاء المنكرين الذين لا ينحصرون في هذين الشخصين فقط ، بل تتعداهما إلى سواهم ؛ وذلك ابتداءً بالأستاذ الكبير: مصطفى صادق الرافعي ، الذي ذكر في كتابه "تاريخ آداب العرب"⁽²⁾ ما نصه "ولا جرمَ أنه لم يكن للعرب شعر هزليّ في جاهليتهم ، لكنهم مع ذلك لم يدعوا التنادر" ، وهنا يمكن طرح السؤال التالي : أليس الهزل والتنادر والتهكم والسخرية ... كلها مرادفاً بعضها لبعض ؟ ألا يعني ذلك أن وجود التنادر يعني وجود الهزل والسخرية — شعراً ونثراً — بوصفها تحصيلاً حاصلًا؟ أما القول الثاني فنجدده عند أحد الباحثين المعاصرين حيث يقول : "في حين نجد أن للسخرية قدماً ورسوخاً في الأدب الأوروبي ، فإننا لا نكاد نعثر عليها في الأدب العربي قبل العصر العباسي"⁽³⁾.

(*) — ذكر له الدكتور يحيى الجبوري في كتابه الذي ترجم فيه مقال "أصول الشعر العربي" ، ص 13 . بحثاً بعنوان "الفكاهة عند كتّاب العرب" ، الذي نشرته مجلة الثقافة الإسلامية ، 1927 ، إلا أنه لم يتسنّ للباحث العثور على هذا البحث .

(**) — هذا المرجع لم يتسنّ للباحث العثور عليه .

(1) — ينظر : السخرية في الأدب العربي حتى القرن الرابع الهجري ، ص 68 .

(2) — 139/3 .

(3) — سهام سلام عباس : السخرية في شعر ابن الرومي — موقف ورؤية (دراسة فنية) ، رسالة ماجستير ، ص 7.

وبعد استعراضنا لبعض آراء المنكرين لمعرفة الأدب العربي^(*) للسخرية قبل العصر العباسي — لاسيما في جاهليتهم ، سنحاول الآن دحض هذه الآراء ، وذلك انطلاقاً من الحقائق التالية :

1 — إن السخرية تعد قديمةً بقدم الإنسان ذاته ، كما أن الظُّرف — وهو من لوازم الهزل والسخرية — ليس مقصوراً على شعب دون غيره⁽¹⁾ ، والعرب كغيرهم من شعوب الأرض عرفوا الظُّرف والهزل والسخرية التي سنورد لها نماذج شعرية وجدناها متفرقة هنا وهناك عند عدد من الشعراء الجاهلين والمخضرمين والأمويين .

2 — والحقيقة الثانية ، يمكن استقراؤها من عبارة ابن سلامّ التالية في كتاب طبقات فحول الشعراء الجاهليين والإسلاميين ، حيث يقول : "وكان من الشعراء من يتأله في جاهليته في شعره ولا يستبهر بالفواحش ولا يتهكم في الهجاء"⁽²⁾ . فيفهم من هذا أنه كان من الشعراء من يتهكم في شعره ؛ لأن النفي هنا جاء لنفي الاستبهار بالفواحش والتهكم عن جزء من الشعراء وليس جميعهم ، فلو كان النفي شمل الجميع لَمَا استخدم ابن سلام (من) التي تفيد التبعض .

3 — إن الشعراء الجاهليين لم تغب عن بالهم ألفاظ السخرية^(**) ، وما يرادفه في أشعارهم فقد ذكروها بصور مختلفة حيث نجد ابن عسلة العبدي^(***) يقول : (طويل)
فأما أخو قِرْط — ولستُ بساخر — فقولاً له : يا اسلمَ بمرّة سالماً⁽³⁾
ومن مرادفاتنا نجد (التهكم) ، يقول عامر المحاربي^(*) : (طويل)

(*) — سبق للباحث محمد مصطفى سلام في أطروحته الجامعية التي أعدها لنيل درجة الماجستير في الأدب من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة سنة 1995م ، سبق له أن خصص عرضاً عاماً لشعر السخرية في العصور السابقة للعصر العباسي ، وذلك ضمن رسالته التي حَمَلت عنوان (شعر السخرية في العصر العباسي) ، مورداً نماذج شعرية كثيرة تمثل شعر السخرية في تلك العصور . انظر ذلك ص3 — 16 من الرسالة نفسها .

(1) — السيد عبدالحليم حسين : السخرية في أدب الجاحظ ، ص 64 .

(2) — 41/1 .

(**) — هذه مسألة مهمة سبق (لنعمان طه) أن أشار إليها في كتابه : السخرية في الأدب العربي ، ص58 — 61 ، وقد استعان الباحث بجزء مما ذكر من أشعار .

(***) — عبدالمسيح بن حكيم بن عفير ، وعسلة أمه نُسِب إليها . الأمدي : المؤلف والمختلف ، ص157 .

(3) — الضبي : المفضليات ، ص304 .

يُغْنِي حُصَيْن بِالْحِجَازِ بِنَاتِهِ وَأَعْيَا عَلَيْهِ الْفَخْرَ إِلَّا تَهَكَّمَا⁽¹⁾
أما حسان بن ثابت فيقول محرّضاً بني البراء على عامر بن الطفيل: (وافر)
بني أم البنين ألم يرُعكمم وأنتم من ذوائب أهل نجد
تهكّم عامر بأبي براء ليخصره وما خطأ كعمد⁽²⁾
أما لفظ (الهزء) فنجده في قول عبدالله بن سلمة الغامدي^(***): (وافر)
على ما أنها هزئت وقالت هنون أجنّ؟ منشأ ذا قريب⁽³⁾
من أقرب المفردات لمعاني السخرية لفظ (الضحك) حيث نرى (عبد
يعوث^(****)) يصف امرأة ضحكت منه سخرية فردّ عليها بقوله: (طويل)
وتضحك مي شيخة عبشمية⁽⁴⁾ كأن لم ترى قبلي أسيراً يمانياً⁽⁴⁾
فهذا الاستخدام المتنوع للفظ السخرية ومرادفاتهما يدل دلالة قاطعة على درايتهم
بالسخرية بوصفها سلاحاً يدافع به الشعراء عن أنفسهم حينما تعوزهم الوسائل الأخرى،
وهي بالفعل تكشف لنا عن بيئتهم وواقعهم الذي لم يقفوا فيه أمام سلبياته موقف المتفرج.
4 — أما الحقيقة الرابعة، فهي ما يقع تحت أيدينا من أشعار ساخرة مختلفة لشعراء
جاهليين ومخضرمين وأمويين — لاسيما شعراء النقائص — سخروا فيها من واقعهم
بل سخروا من أنفسهم كما سنرى عند الحطيئة وغيره؛ لأنهم وجدوا فيها "ترويحاً
عن النفس أو تسرية عن القلب أو استنكاراً لما يقع أو هزءاً وتندراً بالخصم"⁽⁵⁾. ومما
يؤكد ذلك الأشعار الساخرة التالية التي نبدوها بما ورد عند بعض أصحاب المعلقات

(*) — عامر المحاربي هو من بني محارب بن خصفة بن قيس بن عيلان، اختلّف في عصر أهو جاهلي أم إسلامي. ينظر: المؤلف والمختلف، ص 154.

(1) — المفضليات، ص 321.

(2) — ديوانه، ص 63، تحقيق: عمر فاروق الطّباع.

(**) — سلمة بن الحارث بن عوف بن ثعلبة. المفضليات، ص 102.

(3) — المصدر نفسه، ص 103.

(***) — عبد يعوث بن الحارث، شاعر جاهلي. المصدر نفسه، ص 155.

(4) — المصدر نفسه، ص 158، هناك من يرى أن الفعل (تري) في هذا الشاهد ينتهي بياء المخاطبة وليس بالألف المقصورة، وعليه فالفعل أصله (ترين) وبعد حزمه أصبح (لم تري) وذلك بحذف النون؛ لأنخ من الأفعال الخمسة.

(5) — السيد عبدالحليم حسين: في أدب الجاحظ، ص 64.

الذين أسهموا ولو بنماذج يسيرة في تناول الفن الساحر ومن هؤلاء الشاعر امرؤ القيس⁽¹⁾، الذي نجد له هذه الأبيات التي تظهر مزحة ساخرة عنده ، وذلك عندما استخف فيها من (بنى نبهان) عندما أهانوه وأعطوه قطعاً من الماعز لحلبه قليلاً من شأنه وهو ابن الملوك، فأخذ يندد بصنيعهم هذا مشبهاً قرونَ ماعزهم بالعصي ، حيث يقول: (وافر)

ألا إلا تكن إبلٌ فمعزى كأن قرونَ جلَّتِها العِصي
 وجاد بها الربيع بواقصاتٍ فأرام وحاد لها الولي
 إذا مُسَّتْ حوالبها أرَّتْ كأن الحيَّ صبحهم نعي⁽²⁾

أما زهير بن أبي سُلمي⁽³⁾، فنجد له البيت التالي الذي عدّه الأصمعي من التهكم والهزء⁽⁴⁾، وذلك حيث يقول في معلقته :

فتعلل لكم ما لا تُغل لأهلها قرئ بالعراق من قفيز ودرهم⁽⁵⁾

أما النابغة الذبياني⁽⁶⁾، فنجده يقول في بيت له عن قبيلة "عبس" : (طويل)

جزى الله عبساً في المواطن كلَّها جزاء الكلاب العاويات وقد فعل⁽⁷⁾

فتبدو في هذا البيت نبرة ساخرة عابرة سخر فيها النابغة من خصومه قبيلة عبس، واللافت للنظر أن أغلب المستهدفين بهذه السخرية ليسوا أفراداً بعينهم بل جماعة أو قبيلة بأكملها ، ومن هنا يأتي قول "جواس الضبي"^(*) في خصومه : (طويل)

على كل وجه عاتذي رمامة يوافي بها الأحياء حين تقوم

وأورثها شر التراث أبوهـم قماءة جسم والرداء

ذميم

(1) — ابن سلام : طبقات الشعراء ، 5/1.

(2) — امرؤ القيس : ديوانه ، ص136.

(3) — ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، 76/1.

(4) — ابن الخطيب التبريزي : شرح المعلقات العشر المذهبات ، ص133.

(5) — المصدر نفسه ، ص133.

(6) — ينظر : الشعر والشعراء ، 94/1.

(7) — ديوانه ، ص191.

(*) — لم أعثر له على ترجمة.

متى تسأل الضبي عن شر قومه تقل لك إن العائذي لئيم⁽¹⁾
فمثل هذه الأشعار على الرغم من قلتها وبدائية السخرية فيها التي كانت البيئة
البدوية القاسية عاملاً مهماً في عدم تطورها بكل تأكيد ، تثبت لنا أن الشعراء الجاهليين
سخرُوا من حياتهم التي كان للقبيلة الدور الأول والأخير فيها ، فمنهم من يسخر من
سيطرتها. وآخر يسخر من عيب خلقي⁽²⁾ ما ، أو ما شابه ذلك .
هذا فيما يخص الشعراء الجاهليين ، ونجد شعراء آخرين مخضرمين أدلوا بدلائهم في
هذا الفن ، ومن هؤلاء "غويّ بن عبدالعزيز" الذي كان يدعى بهذا الاسم في الجاهلية،
ولما أسلم ولحق بالرسول ﷺ أسماه "راشد بن عبدربه"، وكان سبب إسلامه أنه رأى ثعلبين
تسنماً صنماً من الأصنام ، فعجب كيف أن هذا الصنم لا يرد الأذى عن نفسه عندما
بال أحدهما عليه ولم يحرك الصنم ساكناً⁽³⁾، فأنشد ساخرًا من ذلك الموقف ، ومعرضاً
بعبادة الأصنام حيث قال :

(طويل)

أرَبَّ يَبُولِ الثَّعْلَبَانِ بِرَأْسِهِ لَقَدْ خَابَ(*) مِنْ بَالِ
عليه الثعالب⁽⁴⁾

ومن مشاهير الشعراء المخضرمين الذين ساهموا في تناول هذه الفن الساحر
— لاسيما في الجاهلية — الشاعر "حسان بن ثابت" الذي برع فيه أيما براعة ، حيث
خصّ بسخريته بعض خصومه كقبيلتي "جذام" "مزينة" ومن ذلك قوله في قبيلة "جذام":
(وافر)

لعمري أبي سميّة ما أبالي أنبّ التيس أم نطقت جذام
إذا ما شاتم ولدت تنادوا أجدي، تحت شاتك أم غلام⁽⁵⁾
فهذان البيتان لا يخلوان من السخرية والغمز واللمز، وبخاصة في أنسابهم وأصولهم،

(1) — المرزوقي : شرح ديوان الحماسة ، 3/1453.

(2) — ينظر : يوسف حسني عبدالجليل : الأدب الجاهلي (فضايا وفنون ونصوص)، ص97.

(3) — ينظر : الإصابة في تمييز الصحابة ، 2/434 ، 435.

(*) — وردت (خاب ، هان ، ذلّ) في أكثر من مرجع.

(4) — ينظر : ابن حجر العسقلاني : الإصابة في تمييز الصحابة ، 2/435.

(5) — ديوانه ، ص218 ، تحقيق : عمر فاروق الطباع.

حيث اهتم خصومه ضمناً بالولوع بالحيوان إلى حدّ الفرح والتهليل كلما ولدت عندهم
شاة متسائلين : أجدياً ولدت أم غلاماً ؟ قاصداً بذلك فضحهم بإتيانهم لحيواناتهم في
سخرية قاسية ومرة . أما قبيلة "هذيل" فقال فيها :
(بسيط)
قوم توأصوا بأكل الجار كلهم
فخيرهم رجلاً
والتيس مثلان
لو ينطق التيس ذو الخصيين وسطهم
لكان ذا شرف فيهم وذا

شان⁽¹⁾

أما فيما يخص المقطوعات الشعرية الساخرة فنعثر على هذه المقطوعة التي خص بها
قبيلة "مزنة" حيث وظّف فيها حسان بن ثابت ما تدل عليه مفردات مثل : (التيس —
الجدى — الحمار) وما يتعلق بها من أعضائها التناسلية من وضاعة وانحطاط قدر ، وذلك
حيث يقول :

فما منك أعجب يا بن استها
ولكنني من
أولى أعجب
إذا سمعوا اغي آدوا له
تيسوس
تنب إذا تضرب
تري التيس عندهم كالجواد
بـل التيس
وسطهم أنجب
فلا تدعهم لقراع الكمأة
وناد إلى
سوءة يركبوا⁽²⁾
أما قبيلة "مدحج" فقال فيها :
بنى اللؤم بيتاً على مدحج
فكان على مدحج
ترتبا^(*)

(1) — ديوان حسان ، ص415 ، تحقيق : يوسف عيد.

(2) — المصدر السابق ، ص37. آدوا : اجتمعوا إليه ومالوا ، تنبّ : تصيح.

(*) — تُرْتَباً : مقيماً راسخاً .

دع المكارم ، لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي⁽¹⁾
وقد يفهم المعنى الأخير بأنه أراد بها عكس ذلك ، أي أراد "بالطاعم" : المطعوم
و"بالكاسي" : المكسو ؛ لأن حاله تكون أدعى للسخرية والتهكم في كونه بحاجة لمن
يطعمه ويكسوه فلا طريق لديه لنيل المكارم.

ومن المقطوعات الساخرة التي استخدم فيها الخطيئة ما يُعرف في البلاغة "بتجاهل
العارف" ، نجد قوله في "قدامة العبسي" في مقطوعته التالية : (طويل)
فخرتم ولم نعلم بحادث مجدكم فهات هلمّ بعدها
للتنافر

ومن أنتم؟ إننا نسينا من أنتم وريحكم من أي
ريح الأعاصر

متى جئتم؟ إننا رأينا شخوصكم ضئلاً ، فما إن بيننا من تفاخر
وأنتم أولى جئتم من البقل والدبا فطار، وهذا شخصكم غير طائر⁽²⁾
من اللافت أن "سخرية الخطيئة في رسم صورته الشعرية نابعة عن سخطه الذي
كوّنته عوامل ذاتية واجتماعية من دقة الملاحظة لواقع الأحداث والناس"⁽³⁾ ، من مقطوعته
الأخرى التي قد تمثل تأثير تلك العوامل على سخريته بخصوصه ورصده لزلاتها قوله في
"الوليد بن عقبة" الذي شرب الخمر أيام الخليفة عثمان بن عفان ، حيث يورد لنا القصة
بائناً في ثناياها روحه المرحة والساخرة واضعاً فيها نفسه شاهد عيان على ما جرى ،
وذلك في قوله :

(كامل)

شهد الخطيئة يوم يلقى ربه أن الوليد أحق
بالعذر

نادى — وقد قضوا صلاتهم أزيدكم؟ ثملاً وما يدري
ليزيدهم خيراً ولو قبطوا لقرنت بين الشفع والوتر

(1) — الخطيئة : ديوانه ، ص50.

(2) — المصدر نفسه ، ص312 — 313 ، البقل : نبات عشبي حولي ، الدُّبَا : الجراد.

(3) — عناد غزوان : نزعة التمرد والسخرية في شعر الخطيئة ، مقال منشور في مجلة البلاغ ، ع (3) ، ص29.

فأتوا أبا وهب ولو فعلوا وصلت صلاتهم إلى العشر
خلعوا عنانك إذ جريت ولو خلعوا عنانك لم تنزل تجري⁽¹⁾

وهذه النماذج أعطتنا فكرة عن ميل الشعراء المخضرمين — المذكورين آنفاً — إلى السخرية في أشعارهم بوصفهم عايشوا جزءاً من العصر الجاهلي ، والجزء الآخر من حياتهم قضوه في عصر صدر الإسلام.

وبالانتقال إلى العصر الأموي تطالعنا السخرية مبثوثة في ثنايا فن النقائص ؛ لأنّ "النقيضة تدور في الأغلب حول محورين أساسيين ، أولهما ... فخر وهجاء قبلي ، والثاني فحش من القول يتناول أعراض الأمهات والزوجات والأخوات ونساء القبيلة بوجه عام فيه قدر غير قليل من الطرافة والفكاهة ، والسخرية اللاذعة"⁽²⁾ ومن ذلك ما يصادفنا من صور ساخرة مبثوثة هنا أو هناك في ثنايا نقائص جرير⁽³⁾ والفرزدق⁽⁴⁾، فهذا الأخير لم تغب عن شعره تلك الروح الساخرة — لاسيما عندما يهاجم فيه خصمه التقليدي "جريراً"، ومن طريف ما قاله فيه ، واصفاً إياه وهو يطرح أباه في السوق للمبادلة :

(طويل)

تركنا جريراً وهو في السوق حابس "عطية" هل يلقي به من

يادله

فقالوا له رد الحمار فإننه أبوك

لئيم رأسه وجحافل⁽⁵⁾

وفي بيت آخر يحط الفرزدق أيما حط من قدر جرير وأبيه ، مقارناً بينه وبين آل الفرزدق بين المقامين المتباينين ، فآل الفرزدق يضربون رؤوس القبائل ، أما والد جرير فهو في صورة مزرية من التديني والوضاعة :

(كامل)

(1) — الخطيئة : ديوانه ، ص 259 — 260.

(2) — عبدالقادر القط : في الشعر الإسلامي ، ص 352.

(3) — ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، 1/50.

(4) — المصدر نفسه ، 1/38.

(5) — الفرزدق : ديوانه ، 2/173.

إننا لنضرب رأس كل قبيلة وأبوك خلف
أتانه يتقمل⁽¹⁾

أما عشيرة جرير فلم تسلم هي الأخرى من رشقات الفرزدق القاسية ، وذلك
حيث يقول في بيته التالي :
(كامل)

يستيقظون إلى نهاق حمارهم وتنام أعينهم
عن الأوتار⁽²⁾

وقال في جرير :
(كامل)
يُهدي الوعيد ولا يحوط حريمه كالكلب ينبح من وراء الدار⁽³⁾

وقد قال الفرزدق أيضاً ساخراً من جرير ومن قبيلته ونسبته إليها : (طويل)
تمنى جرير دارماً بكلييه وهيهات من شمس
النهار الكواكب

وليست كليب كائنين كدارم وودّ جرير لو عطية
غالب⁽⁴⁾

وفي غير جرير نجد الفرزدق يقول في العبد الطرماح :
(طويل)
لقد هتك العبد الطرماح ستره وأصلى بنار
قومه فتصلت

سعيراً شوت منهم وجوهاً كأنها وجوه خنازير على النار
ملت

فما أنجبت أم العلافى طيئى ولكن عجوز
أحبثت وأقلّت⁽⁵⁾

ويقول كذلك في "جرير وقيس"، واصفاً إياه بأنه كلب لها :
(طويل)

(1) — المصدر نفسه ، 158/2.

(2) — المصدر نفسه ، 370/1.

(3) — المصدر نفسه ، 318/1.

(4) — المصدر نفسه ، 91/1.

(5) — المصدر نفسه ، 114/1.

جرير وقيس مثل كلب وثلة يبيت حواليتها
يطوف وينبح

وما هو منها غير أن نباحه ليولغ في
ألبانها حين يصبح⁽¹⁾
ويقول في بني منقر : (طويل)
تنابلة سود الوجوه كأنهم حمير بني غيلان إذ ثار
صيقها^{(2)*}

أما "جرير" فنجد السخرية متمكنة في طبعه ، وقد كان على وعي تام في استخدامه لعدد من نقاط الضعف التي وجدها في خصومه فسعى إلى التركيز عليها وتضخيمها لدى خصومهم ، لاسيما خصماه التقليديان "الأحطل ، والفرزدق" ؛ ربما كان شعوره كأنه يحس بالدونية لانتسابه لقبيلة "كعب" التي يقال فيها أنها كانت أقل شأناً من قبيلتي خصميه "تغلب ، وتميم"⁽³⁾؛ لذلك نجده يركز على مهاراته الفنية وتفوقه على خصميه في النيل منهما ومن يناصروهم ، ومن ذلك "بنو صبير" الذين ناصرُوا الفرزدق عليه فقال فيهم :

أما صبير فإن قلو وإن لؤموا فلست هاجيهم ما
حنت النيب
أما الرجال فجعلان ونسوهم مثل القنفاذ لا حسن ولا
طيب⁽⁴⁾

ويقول في قبيلة الهجيم عندما منعه بأن يغشى مجالسهم : (كامل)
إن الهجيم قبيلة محسوسة ثط اللحي
متشابه هو الألوان
لو يسمعون بأكلة أو شربة بعمان أصبح

(1) — الفرزدق : ديوانه ، 1/127.

(*) — الصيق : الغبار المتار.

(2) — المصدر نفسه ، 2/35.

(3) — شوقي ضيف : الأدب الإسلامي ، ص 208 ، 265.

(4) — جرير : ديوانه ، 2/697 (دار المعارف)، جُعلاب : جمع جُعل ، وهي دويبة صغيرة.

جمعهم بعمان⁽¹⁾

فيما نراه يركز على "النساء" بوصف ذكرهن ينقص من قدر قبيلة خصمه، فكيف إذا اقترن هذا الذكر بالسخرية منهن مثلما قال في نساء تغلب :

(وافر)

تسوف التغليبية، وهي سكرى قفا الخنزير تحسبه

غزالا⁽²⁾

ونجده يركز على "النساء" بوصفهن نقطة ضعف عند خصومه ، لاسيما عندما يتناقل الناس ما يقوله فيهن من شعر ، ويصبحن موضوع مفاكهاهم وتندرهم في المجالس، ولا شك أن ذلك يكون أكثر صعوبة على خصومه عندما يقرن ذكرهن بأسماء قبائلهن، فيتجاوز ذلك السخرية من النساء إلى قبائلهن وأنسابهن ، ومما يؤكد هذا قول جرير في نساء مجاشع قوم الفرزدق :

(كامل)

وإذا فخرت بأمهات مجاشع فافخر بققب واذكر

النحوار⁽³⁾

إضافة إلى ما سبق يلاحظ تركيزه على أسمائهن المبهمة المعنى والغريبة اللفظ مثل :

(خَجَجْجِج ، جَوَّحَى ، القُدَّام) في مثل قوله :

(طويل)

لقد كان يا أولاد خججج فيكم فحول رحل للزبير

ومانع⁽⁴⁾

وقوله كذلك :

(وافر)

فإن مجاشعاً فتعرفوهم بنو جوحي

وخججج والقذام

وأمهم خضاف تداركهم بذحل في القلوب

(1) — المصدر نفسه ، ص479 (دار صادر).

(2) — المصدر نفسه ، ص330 (دار صادر).

(3) — جرير : ديوانه ، 1/519 (دار المعارف)، ققب النحوار : اسمان لأمتين.

(4) — المصدر نفسه ، ص293 (دار صادر).

وفي العظام⁽¹⁾

وبذلك أدخل جرير طريقة من طرق الإيحاء وتوظيف دلالات تلك الكلمات التي "قد لا يستشعر القارئ من هذه الألفاظ ما تحويه من مسحة الهزء والسخرية . مثلما كان الأمر في عصرها وبيئتها ، بيد أنه مع الاستعانة بدلالاتها التي تسجلها المعاجم اللغوية، تتبين حقيقة إيحاءاتهم ووقع سخريتها على النفس ، بخاصة الألفاظ التي تتداخل فيها أصوات رنينية الوقع ساحرة الدلالة"⁽²⁾.

وفي إطار توظيف جرير لأية نقطة ضعف عند خصمه للنيل منه نجده يجعل من مهنتي "القيون ، والكير" اللتين اشتهر بهما جدّ الفرزدق منفذاً للحطّ من قدره ومكانته ومسبةً له يعيره بها إذا ما أعوزته وسيلة يسخر بها منه ، حيث يقول فيه : (طويل)
وأورثك القين العلاة ومرجلاً وإصلاح أخرات لفؤوس الكرازم⁽³⁾

ونراه يوظف العامل الديني كذلك مع الفرزدق على الرغم من أنه من بني جلدته وعلى دينه ، إلا أنه أراد أن ينسب قومه "بني تميم" إلى "تغلب" ، ربما من باب تجاهل العارف، وذلك عندما قال في رهط الفرزدق : (كامل)
رهط الفرزدق من نصارى تغلب أو تدّعي كذباً
دعاوة زور⁽⁴⁾

فيما نجده صوّره لنا حين يدخل المسجد بأنه رجس حيث يقول : (كامل)
إن الفرزدق حين يدخل مسجداً رجس فليس طهوره بطهور⁽⁵⁾

إضافةً إلى ما سبق نجد لجرير أبياتاً متفرقة تناقلتها الألسن وشاعت بين الناس لدقة

(1) — المصدر نفسه ، ص406 (دار صادر)، جوخي، خججج، القدام، خضاف : أوصاف للنساء الإمامة تحمل معنى الاستخفاف والشتيم.

(2) — أنور حميدو وعلي فشوان : فن السخرية في شعر جرير ، مقال نشرته جامعة الملك عبدالعزيز (كلية المعلمين بجدة) على موقعها الإلكتروني : www.kau.edu.salshow-Res

(3) — جرير : ديوانه ، ص458 (دار صادر).

(4) — المصدر نفسه ، ص149 (دار صادر).

(5) — الموضع نفسه.

معانيها وظرفها وسهولة حفظها ، ومن ذلك قوله :
زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يا
مربع⁽¹⁾

وفي حادثة طريفة ذكرها ابن سلام في طبقاته قال : " قال الحجاج لهما [جرير
والفرزدق] وهو في قصره بجزيرة البصرة : آتيا في لباس آبائكما في الجاهلية ، فجاء
الفرزدق وقد لبس الدياتج والخز وقعد في قبة وشاور جرير دهاة بني يربوع فقالوا : ما
لباس آبائنا إلا الحديد ، فلبس جرير درعاً وتقلد سيفاً وأخذ رمحاً وركب فرساً لعباد بن
الحُصين يقال له المحاز في أربعين من بني يربوع ، وجاء الفرزدق في هيئته⁽²⁾ فقال جرير :

(طويل)
لبست سلاحي والفرزدق لعبة عليه وشاحا كرج
وجلاجله
أعدوا مع الخز الملاب فإنما جرير لكم بعل وأنتم
حلائله⁽³⁾

ففي هذه الأبيات إشارة ساخرة خفية أظهر بها جرير خصمه الفرزدق بصورة
الخليلة له؛ لأن الأخير أتى الموعد متوشحاً متخذاً من لعبة الكرج مهراً له ومنتظياً بطيب
الملاب أي الزعفران، ويده جلاجله أي جراسه ومرتدياً ثوب الخز المطرز بالحرير، وفي
مقابل هذه الصورة المضحكة لخصمه أخذ هو برأي قومه "بني يربوع" فأتى الموعد مدحجاً
بسلاحه ودروعه ممتظياً فرساً مشهوداً لها بأنها أصيل ولها جولات وصولات في خوض
المعارك الحقيقية.

فمثل هذه الحادثة الطريفة تنم عن طبعه الساخر وإيقاعه بخصمه في مفارقاته
العجبية والمقصودة في آن ، ومن سخرياته الرائعة هذه الصورة التي سخر فيها من خصوم
له:

قوم إذا حضر الملوك وفودهم نتفت شواربهم على

(1) — ابن سلام : طبقات الشعراء ، 209/2.

(2) — المصدر نفسه ، 406/2.

(3) — الموضع نفسه.

مما سبق يتضح لنا أن السخرية لم تكن غائبة في العصر الأموي بل حاضرة ، وقد ساهم فن النقائض وشعراؤه في تطورها عن الشكل الذي رأيناه فيه قبل هذا العصر ، وهذا بالتأكيد ينفي المزاعم التي يعتقدونها المنكرون لوجود السخرية في هذا العصر أو قبله. صحيح أن النتاج الشعري الساخر قبل العصر العباسي لا يقارن بما ظهر من نتاج ساخر بعده، إلا أن هذا لا يعني على الإطلاق أن العرب لم يعرفوا السخرية إلا في العصر العباسي ؛ لأنه لا يعقل أن نجد فتناً كفن السخرية — مثلاً — متطوراً هذا التطور كما هو عند ابن الرومي ، ونقول إن ذلك مجرد بدايات ، أو أن نربط السخرية في أدبنا العربي بكتابات الجاحظ ، أو بديع الزمان الهمداني ؛ لأن هؤلاء جميعاً لا شك أنهم وجدوا محاولات وإضاءات قبلهم ترسموا خطاها وطوروها على الشكل الذي رأيناه عندهم وعند غيرهم ممن نحوا في أشعارهم أو كتاباتهم المنحى الساخر في العصر العباسي.